الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة التّعليم العالي و البحث العلمي
جامعة أدرار

كلّيّة الآدب و اللّغات قسم اللّغة و الأدب العربي

غياب الأنا وحضور الآخر في رسائل الشّيخ عبد الحميد بن باديس

دراسة وصفيّة أسلوبيّة

مذكرة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير في اللّغة والأدب العربي

تخصّص: الجهود اللّغوية والأدبيّة للعلماء الجزائريين بين القرنين التّاسع عشر والعشريين الميلاديين

لجنة المناقشة:

1- أ.د/ أحمد جعفري	جامعة أدرار	رئيسا
2- د/ محمّد الأمين خلاّدي	جامعة أدرار	مشرفا و مقرّرا
3- أ.د/ يوسف وغليسي	جامعة قسنطينة	مناقشا
4- د/ عبد القادر قصاصي	جامعة أدرار	مناقشا
5- د/ خدير المغيلي	جامعة أدرار	مناقشا
6- د/ عبد الرحمان قاسي محمّد	جامعة أدرار	مناقشا

من إعداد الطّالب:
عطواني عبد الحميد

بإشراف الدّكتور:
محمّد الأمين خلاّدي

السنة الجامعيّة: 1435هـ1436/2014م2015

لا مرية أنّ مجال البحث العلمي واسع الباع منوّع الأتباع، لذلك كانت له أصول تحدّد معالمه، وميزات و مميّزات تؤطّر صاحبه، وأهداف تسطّر منحاه، و كلّ هذا حسب التّخصّص الذي يدور حوله البحث.

و لأنّ الأدب مجال من مجالات البحث العلمي، و طرف مهم من أطرافه كانت صناعته صعبة المنال، و المهم في ذلك أنّ نبش هذه الصّناعة طويل الفترات، كثير العثرات يحتاج إلى باحث طويل النّفس، شديد البأس يحمل من مخزون المعرفة كثيرها، و من قدرة النّقد أدقّها، لا يهدأ له بال في نقد الابداع حتّى يعرف سرّ جماله، و لا يدخل إلى عقله يقين في تتبّعه لمرحة من مراحل الأدب و كلّ ما يتعلّق بها (من مميّزات الإبداع فيها و مبدعيها و نقّادها...) حتّى يتأكّد من خلال بحثه من صحّة ما يقال عنها، و لما لا يتوصّل إلى جديد يشوبها !.

وبما أنّ نتاج الأدب الجزائري في بعض فترات تطوّره يعدّ مغمور الأشخاص، قليل التّمحيص، على الرّغم من جودته و مشهوره و عزّته و مغموره، كان لابد من تسليط الضّوء على إحدى تلك الفترات، و هي الفترة الممتدّة ما بين القرنين التّاسع عشر و العشرين الميلاديين، و الكشف عن جهود أعلامها و إبداعاتهم، و تتبّع مراحل تطوّرها، و الوقوف على أهمّ سمات و مميّزات الإبداع فيها.

فوجدت أنّ معظم الدّراسات التي تناولت أعلام الحركة الإصلاحيّة و إبداعاتها النّثريّة في تلك الفترة و بالأخص عبد الحميد بن باديس وجّهت عناية اهتمامها إلى الجانب الإصلاحي من نتاجه النّثري، و أغفلت دراسة الجانب الفني في كتاباته و من ذلك كتاب الدّكتور رابح تركي "الشّيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي و التّربيّة في الجزائر"، الذي تناول فيه حياة ابن باديس الشّخصية فاردا جزءا كبيرا من هذا المؤلّف لتبيان دوره الإصلاحي و التّربوي، و نجد كذلك كتاب عبد القادر فضيل و محمد الصّالح رمضان "إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس"، اللّذين تعرّضا فيه إلى جوانب من حياة ابن باديس الخاصّة و مواقفه السياسيّة، و آرائه الفكرية و الفلسفيّة، و إسهاماته الإصلاحيّة في مجال الدّين و التّربيّة و التّعليم، و نجد كذلك كتاب الدّكتور عبد الكريم بوصفصاف" الفكر العربي المعاصر (محمد عبده و عبد الحميد بن باديس) نموذجا في جزأين، الذي قارن فيه بين المفكّرين على مختلف الأصعدة (الحياة الشّخصية، التّعليميّة، و العلميّة، و الفكريّة، و السّياسيّة).

فأحببت أن أفتح نافذة أطلّ من خلالها على بعض إسهامات عبد الحميد بن باديس في مجال الأدب، فركّزت جهدي على ظاهرة تجلّت لي و أنا أبحث فيما كتب عنه و عن رسائله؛ إذ رأيت أنّها طبعت إبداعاته بطابع خاص غفلت العيون

عن رؤيته، و رؤية سرّ جماله في كتاباته. وهي أنّ الرّجل في جلّ رسائله يعاف أن يسقى من كأس الذّاتيّة، ويتلهف عطشا لأن يروى من كأس الغيريّة.

فكانت هذه المفارقة أرضا خصبة لنفيّ الذات و إثبات الآخر في شخصيته و كتاباته، فالمطّلع على رسائل ابن باديس لا شكّ أنّه سيلحظ عزوفه التّعبير عن الجانب الشّخصي و الإفصاح عن وجدانه و أحاسيسه الخاصّة، ذلك أنّ فكره كان مشغولا بالاهتمامات العامة، وذاته كانت تستغرقها معاناة الآخرين.

لكن ما يهمّنا في بحثنا هذا هو كيف ساعدت هذه الميزة (النّظرة الغيريّة) عبد الحميد بن باديس في صقل رسائله بالصّدق و القصد و الوضوح؟، ثمّ إلى أيّ مدى استطاعت رسائله أن تعبّر عن الجانب الإنساني فيه من جهة، و عن هموم الوطن و الجزائريين من جهة أخرى؟، وكيف أنّ هذا الجانب الإنساني الغيري أضفى على رسائله صبغة جماليّة وفنّية ما كانت لتظهر لو جاءت ترسف بالأفكار الذاتيّة و المهارات اللّغويّة الفرديّة؟.

فاخترت لبنات أفكاري جدليّة "غياب الأنا و حضور الآخر في رسائل عبد الحميد بن باديس (دراسة وصفيّة أسلوبيّة) كعنوان يتألّف من شقّين هما: "غياب الأنا في رسائله"، وهذا من خلال عزوفه الكتابة في الأمور الذّاتيّة (الرّسائل الشّخصيّة)، و الشّق الثاني "حضور الآخر في رسائله"، وهذا ما نلمحه في شعوره بمعاناة الشّعب الجزائري و الدّفاع عن قضاياه المختلفة، وذلك من خلال استنطاق

سمات أسلوبيّة في نموذج تطبيقي وهذا بخصوص المتحوّل التّطبيقي، أمّا الجانب النّظري فحاولت فيه أن ألمّ بتطوّر فن الرّسائل في النّثر الجزائري تاريخيّا و فنيّا كما تعرّضت فيه لملامح هذه الجدليّة في نثر ابن باديس و شخصيته.

ولعلّ هذا الجانب الإنساني في شخصية عبد الحميد بن باديس و كتاباته كان دافعا قويّا لاختيار موضوعي هذا، فقد رأيت أنّه من الإجحاف في حقّه و هو الذي كان همّه يتجاوز نفسه إلى غيره أن يقابل بهذه الأحكام البسيطة عن أسلوب رسائله، ثمّ و جدت أنّ هذه الميزة الغيريّة "غياب الأنا و حضور" الآخر في كتاباته لم يستوف حقها من البحث و الدّراسة، كما أحببت أن أسهم ولو بقدر قليل في الكشف عن جانب مغمور من آثاره (الرّسائل)، ناهيك عن ميلي إلى قراءة كتابات الجزائريين من العلماء الذين واكبوا فترة الاحتلال.

وقد كانت هذه البواعث حافزا لي لإبراز النّظرة الغيريّة الإنسانيّة في مكاتبات عبد الحميد بن باديس و مؤلّفاته، تلك النّظرة التي أثّرت في المواطن الجزائري و ما زالت، كما كانت ملهمة لي في تبيان سموّ رسائله عن كلّ جمال لغوي، على الرّغم من أنّها ليست خلوّ من الأسلوب الواضح الرّائق الشّيّق الغائي، ممّا سأبيّنه في عرض النّماذج النّظريّة و تحليل النّموذج التّطبيقي، إضافة إلى أنّني وددت أن أحيل الدّارسين و طلبة العلم على موروث الجزائريين قديما و حديثا وما

توفّرت عليه كتابات ابن باديس من لغة و بناء فكري حضاري، و ذخيرة ثقافيّة من شأنها أن توجّه الجزائري نحو الأفضل، وتمدّه بأسرار أخرى في البيان و الفكر...

لذلك حاولت في هذا البحث أن أبيّن كيف أنّ هدف عبد الحميد بن باديس – في نظري– الإصلاحي و الجماعي و بالتّالي الغيري، الموجّه في أغلبيّته إلى العامّة كان سببا في أن تأتي مكاتباته سهلة واضحة مراعاة لمستوى ثقافتهم حتى يفهموه و يحسنوا التّجاوب معه، و هذا ليس معناه أنّه لا يملك حسّ الجمال اللّغوي و الفنّي، و إنّما الرّسالة التي كان يؤدّيها هي التي فرضت عليه هذا الأسلوب، مثبتا حضور الآخر في رسائله وغياب دوافعه الشّخصيّة فيها، كما سأتطرّق إلى تطوّر هذا الفن في النّثر الجزائري قبله و معه موضوعا و لغة و فنا.

فموضوعي و إن اشتمل على بعض ما أشار إليه الباحثون في كتاباتهم – وهذا ما يتطلّبه بحثي– يحوي ظاهرة خاصّة تحتاج إلى بحث وتفصيل، و ذلك بجمع المادة التي تحتوي رسائل ابن باديس في موضوعات مختلفة ظلّت فيها ظاهرة "غياب الأنا وحضور الآخر" ثابتة بارزة لها خصائصها البارزة في المضمون و الشّكل.

أمّا المناهج التي سخّرتها في البحث للوصول إلى نتائجه فنجد:

- المنهج التّاريخي: الذي ساعدني في جمع المادة و تتبّع تطوّر فن التّرسّل تاريخيّا في الأدب الجزائري.

- المنهج الوصفي: على اعتبار أنّ الدّراسة الوصفيّة مكّنتني من تأمّل الظّاهرة (غياب الأنا و حضور الآخر)، وجنيّ ثمارها في رسائل عبد الحميد بن باديس.

- المنهج الأسلوبي الإحصائي: الذي عبّد الطّريق أمامي للبحث في الأسرار التي مكّنت رسائل ابن باديس –و هي تنطوي على هذه الميزة– من توصيل رؤيتها و الكشف عن قوانينها الدّاخليّة و الخارجيّة في نظامها و فهم عناصرها و إدراك دلالتها.

وحتّى أحقّق مرادي من هذا البحث انتهجت خطّة تتضمن مقدّمة و مدخلا تمهيديّا و فصلين، يأتي سيرها كالآتي:

فالمدخل التّمهيدي حاولت فيه أن ألمّ بتعريف بعض المصطلحات المفتاحيّة للبحث، متطرّقا إلى تطوّر فن التّرسّل في الأدب الجزائري عبر فترات بارزة من تاريخ الجزائر الأدبي، مسترسلا الحديث عن تطور هذا الفن خلال القرنين التّاسع عشر و العشرين الميلاديين.

أمّا الفصل الأوّل فعرّضت فيه نبذة عن حياته و دوره الإصلاحي، وتناولت فيه نتاجه النّثري مركّزا على فنّ التّرسل مدار التّطبيق، و مبيّنا غياب الأنا في كتاباته.

في حين خصّصت الفصل الثّاني للجانب التّطبيقي لإبراز النّظرة الغيريّة في رسائل عبد الحميد بن باديس و ذلك بالوقوف على مظاهر غياب الأنا في بعض رسائله، وإثبات حضور الآخر في رسالة مختارة من خلال قراءتها قراءة وصفيّة نفسيّة، و استنطاق مستويات أسلوبها، ثم تقصي علامات الانزياح فيها، و عرضت في آخر هذا الفصل شهادات تؤكد غيريته.

و أنهيت البحث بخاتمة حاولت أن أستظهر فيها أهم النّتائج التي توصّلت إليها، و أردفتها بملحق يشمل بعض الرّسائل التي تطرّقت إليها في البحث.

وقد استعنت في إنجاز هذا البحث بمراجع و مصادر كثيرة شملت حقولا معرفيّة متنوّعة؛ من كتب التّراث العتيقة إلى الكتب العربيّة المعاصرة و المعاجم و المجلاّت التي أسهمت في إثراء موضوعي و إخراجه في صورته المتواضعة و أذكر على سبيل المثال لا الحصر الكتب التّاليّة:

"لسان العرب" لابن منظور، ""موسوعة لالاند الفلسفيّة"، "نفح الطّيب" لأحمد المقري، و "تاريخ الأدب الجزائري" لمحمّد الطمّار، و "في الأدب العربي الحديث

بالجزائر" لمحمّد بن سمينة، و "تاريخ الجزائر الثّقافي" لأبي القاسم سعد اللّه، و "المقتضب" للمبرّد، و "دلائل الإعجاز" للجرجاني، و كتاب "الأسلوب" لأحمد الشّايب، و "الأسلوب و الأسلوبيّة" لعبد السّلام المسدّي، ومن المجلات الشّهاب و البصائر و غيرها من المراجع و المصادر التي يطول الحديث بذكرها.

وخلال بحثنا هذا اعترضتنا بعض الصّعوبات التي قطعت الطّريق أمام ما كنا نصبوا إلى تمام تحقيقه من أهمّها: قلّة المراجع التي تتحدّث عن تطوّر فنّ الرّسائل في الأدب الجزائري القديم و الحديث، وكذلك ندرة الدّراسات التي تتناول النّتاج الأدبي لعبد الحميد بن باديس.

وأخيرا أشكر الأستاذ المشرف الذي كنت ألجأ إليه بين الفينة و الأخرى فأجد فيه المرشد النّاصح، و أشكر كل من كان له الفضل عليّ في إنجاز هذا البحث دون أن أنسى أساتذتي الذين سهروا على تكويني و زملائي في قسم ما بعد التّدرج، كما أسجّل شكري و تقديري لأعضاء لجنة المناقشة الذين ما ادّخروا جهدا في سبيل مناقشة هذه المذكّرة.

الطّالب: عطواني عبد الحميد

1- تحديد بعض المصطلحات

2- تطوّر فن الرّسائل في الأدب الجزائري

3- التّرسّل في الأدب الجزائري خلال القرنين التّاسع عشر و العشرين الميلاديين

1- تحديد بعض المصطلحات:

لمّا كان موضوع البحث يجمع بين ثناياه مصطلحات تحمل في طيّاتها مفاهيم أدبيّة وفلسفيّة ونفسيةّ وجب أن نقف على المدلول اللّغوي والاصطلاحي لهذه المصطلحات، وإنزالها مواضعها دون مغالاة أو إطلاق، وهذا ما سيمكّننا من التّصرف بها بدقة و مهارة من جهة، ومن جهة أخرى أنّ عملية تحديد المصطلح في ذاتها تنفي عن موضوعنا كل انطباعية متأتيّة عمّا يخالجنا.

لذلك ارتأيت أن أستظهر تعريفا لغويّا وآخر اصطلاحيّا لكلّ من المصطلحات التّالية: الأنا، الآخر، الذّات، الغير، الغيريّة، التّرسّل، المنشور، البلاغ، البيان.

1- 1- الأنا لغة:

«قال الجوهري: وأَمّا قولهم أنا فهو اسم مَكْنِيٌّ، وَهُوَ لِلْمُتَكَلِّم وَحْدَهُ، وإِنّمَا يُبْنَي على الفتح فرقا بينه وبين أَنْ التي هي حرف نصب للفعل، والألف الأخيرة إِنَّمَا هي لبيان الحركة في الوقف»[1].

1- ابن منظور: لسان العرب. تحقيق عبد اللّه علي الكبير، محمد أحمد حسب اللّه، هاشم محمد الشّاذلي، القاهرة مصر، دار المعارف، ط4، مج1، ج1، باب الهمزة، (مادة أنن)، ص160.

وورد تعريف الآنا في المعجم الوسيط على أَنَّهُ «ضمير رفع منفصل (للمتكلِّم أو المتكلِّمة)»[1].

1-2- الأنا (MOI-I) اصطلاحا :

من المسلّمات النّفسيّة أنّ للإنسان قوة باطنة تراقب و تحدّد أيّ سلوك بشري وهي الأنا؛ فهي تلك «الذات التي ترد إليها أفعال الشعور جميعها، وجدانية كانت أو عقلية أو إرادية»[2].

و بذلك يكون «الأنا الآمر النّاهي ومركز الشّعور والإدراك والحكم والتّبصّر في العواقب والمشرف على أفعالنا الإرادية»[3]، فهو يشير «إلى ما يهتم به الفرد من أفعال معتادة ينسبها إلى نفسه فيقول: أنا فعلت و أنا أبصرت»[4].

وفي خضمّ سيطرة الأنا على مختلف نوازعه النّفسيّة والعقليّة تبرز أنانيتــه

1- مجمع اللّغة العربيّة: المعجم الوسيط. جمهورية مصر العربية، مكتبة الشّروق الدّوليّة، ط4، 1425هـ/2004م، باب الهمزة، (مادة أنا)، ص28.

2- مجمع اللّغة العربية: المعجم الفلسفي. القاهرة مصر، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1403هـ/1983، ص23.

3- خير اللّه عصّار: مقدّمة لعلم النّفس الأدبي. الجزائر ديوان المطبوعات الجامعيّة، 1982، ص65.

4- جميل صليبا: المعجم الفلسفي. بيروت لبنان، دار الكتاب اللبناني، 1982، ج1، ص140.

وتطغى فردانيته لنفسه «من حيث اهتمامه، ومصلحته وانحيازه لذاته (ما يتجلّى في الخارج من خلال الاستعمال المألوف لكلمتي je أوMoi) وتاليا ، نزعة إلى ربط كلّ شيء بالذّات»[1].

لكنّ الأنا لا يستطيع أن يشعر بوجوده إلاّ من خلال تلاقحه وتفاعله وشعوره «بالوجود الذّاتي المستمر والمتطوّر بالاتصال مع العالم الخارجي والاختبارات والتثقّف، ثمّ بالتّأمّل والاستبطان. وهذا الأنا هو مركز البواعث والأعمال التي تؤقلم الإنسان في محيطه، وتحقّق رغباته، وتحل النّزاعات المتولّدة عن تعارض رغباته»[2].

1-3- <u>الآخر لغة :</u>

عرّف لسان العرب مادة الآخر، «بالفتح: أحد الشيئين وهو اسم على أَفْعَلَ، والأنثى أُخْرَى إلاّ أنّ فيه معنى الصّفة لأنّ أَفْعَلَ من كَذَا لا يكون إلاّ في الصّفة.

والآخر بمعنى غير، كَقَوْلك رَجُلٌ آخَرُ وثَوْبٌ آخَرُ، وأصله أَفْعَلُ من التَّأَخُّر، فلمّا اجتمعت همزتان في حرف واحد اسْتُثْقِلَتَا فأُبدلَت الثّانية ألفاً لسكونها وانفتـــاح

1- أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفيّة. تعريب خليل أحمد خليل، بيروت لبنان، منشورات عويدات، ط2، 2001، مج2(HQ)، ص824.

2- جبور عبد النّور: المعجم الأدبي. بيروت لبنان، دار العلم للملايين، ط2، كانون الثّاني (يناير)، 1984، ص36.

الأولى قبلها»[1].

وجاء معنى الآخر في المعجم الوسيط: «أحد الشيئين، ويكونان من جنس واحد، قال المتنبي:

وَدَعْ كُلَّ صَوْتٍ غَيْرَ صَوْتِي فَإِنَّنِي أَنَا الصّائِحُ المَحْكِيُّ والآخَرُ الصَدَى

كما ورد بمعنى غير، قال امرؤ القيس:

إذا قلت هذا صاحب قد رَضِيْتُــهُ وقَــرَّتْ بِــهِ العَيْنَانِ بُدِّلْتُ آخَــرَا»[2]

1-4- <u>الآخر(Lautre-Other) اصطلاحا:</u>

إنّ الآخر مصطلح واسع الدّلالة لكنّه في كلّ تعريفاته ينطلق من مبدأ الغير والمغايرة، إذ أنّه يشمل كلّ ما يقع خارج الذّات أو يختلف عنها؛ فنحن «إذا وضعنا شخصا ما أو مجموعة أو مؤسّسة في موقع الآخر أو الغير، فإنّنا نضعه أو نضعها خارج سياق انتمائنا، أي خارج سياق الفرد الذي يضع الشّخص أو المجموعة أو المؤسّسة في هذا الوضع عرفا أو طبعا»[3].

1- ابن منظور: لسان العرب. مج1، ج1، باب الهمزة، (مادة آخر)، ص38.

2- مجمع اللّغة العربيّة: المعجم الوسيط، باب الهمزة، (مادة آخر)، ص8.

3- محمد عناني: المصطلحات الأدبيّة الحديثة(دراسة و معجم إنجليزي-عربي). الشركة المصرية العالمية للنّشر- لوجمان، ط3، 2003، ص68.

1-5- الذّات لغة :

«النّفس والشّخص يقال في الأدب: نقد ذاتيّ: يرجع إلى أراء الشّخص وانفعالاته، وهو خلاف الموضوعي (محدثه) ويقال: جاء فلان بذاته: عينه ونفسه. ويقال عرفه من ذات نفسه: سريرته المضمرة، وجاء من ذات نفسه طيّعاً»[1].

1-6- الذّات (Essence-self) اصطلاحا:

إنّ مرحلة نضوج الأنا واكتمال وجوده «تأتيه في مرحلة لاحقة إذا ما زاد وعيه واتّسع تفكيره وأصبح يتحرك وفق جماعة أو أمّة»[2]، بحيث يتصرّف بما تقتضيه ذاته ويمليه عليه وعيه الجمعي؛ إذ لم يعد الأنا متفرّداً في التّعبير عن شخصه، و مقيّما لسلوكه الإنساني إلاّ من خلال وجود الذّات، بمعنى أنّ «أنا لا تصبح كياناً قائما برأسه، بل إنّه يأتي إلى الوجود باعتباره الكيان الذي يخاطبه الآخرون ويرتبط بعلاقات معهم»[3].

ومن هنا يمكننا القول أنّ الذّات «تعتبر منبع من لون ما أو أصلا أو مصدراً

1- مجمع اللّغة العربيّة: المعجم الوسيط، باب الذّال، (مادة الذّات)، ص307.
2- عبد اللّه بن محمّد طاهر تّرسي: "ثنائيّة الأنا و الآخر بين الصّعاليك و المجتمع الجاهلي". مجلّة التّراث العربي، دمشق، العدد المزدوج 120-121، (كانون الثّاني نيسان 2011- رمضان ذي الحجّة 1431هـ)، ص(169-192).
3- محمد عناني: المصطلحات الأدبيّة الحديثة، ص108.

لحركات تاريخيّة كبرى أو حتى للأحداث التّاريخيّة والاجتماعيّة والشّخصيّة الكبيرة»[1]، تنشأ بوجود تواصل بين ذوات أفراد جماعة يمثلون انتماءً أو تمثلاً لهويّة ما، ولكن وعلى الرغم من هذا فإنّ الأنا يحتفظ باستقلاليته ضمن الذّات (الأم).

1-7- الغير لغة:

يقول ابن منظور: «وتكون غير اسما، تقول: مررت بغيرك، وهذا غيرك. وبالتّنزيل العزيز﴿ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾[2] خفّضت غير لأنها نعت للذين»[3].

وأورد صاحب المعجم الوسيط أنّ غير تكون «اسما بمعنى سوى، نحو: مررت بغيرك: أي بسواك وهذا غيرك»[4].

1-8- الغير (autre – other) اصطلاحا:

إنّ اجتماعية الإنسان تفرض عليه التّفاعل مع الآخرين أي مع الغير الذي هو ذات فاعلة واعية مغايرة ومخالفة لأيّ ذات أخرى؛ فالغير هو أنا آخر مقابل للذّات

1- المرجع السّابق، ص107.
2- سورة الفاتحة، الآية 7.
3- ابن منظور: لسان العرب. مج5، ج36، باب الغين، (مادة غير)، ص3324.
4- مجمع اللّغة العربيّة: المعجم الوسيط، باب الغين، (مادة غير)، ص668.

المفكّرة و يعتبر «أحد تطورات الفكر الأساسيّة ويراد به ما سوى الشّيء ممّا هو مختلف ومتميّز منه ويقابل الأنا»[1].

1-9- الغيريّة لغة:

من غير جاء معنى الغيريّة «بكون كلّ من الشّيئين خلاف الآخر و هي خلاف الأنانيّة»[2].

1-10- الغيريّة (ALTRISME) اصطلاحا:

كما ذكرنا سالفا فإنّ الغير مخالف ومغايّر للأنا، لكنّه في الوقت نفسه مشابه ومماثل له في الإنسانية بكلّ مقوماتها الاجتماعيّة، الثقافيّة، النفسيّة، ... وبالتّالي فإنّ وجود الغير ضروري لوجود الأنا ووعيّه بذاته ومعرفته لمكوناته بل «إنّ أفضل وسيلة لمعرفة النّفس هي أن تسعى لمعرفة الغير»[3].

فالأنا مجبر على أن يعايش الآخر ويتأثّر بمشاعره وانفعالاته، وأحاسيسه مادام أنّه يتواصل مع ذلك الغير، من هنا كان إحساس الأنا بالغير وتنصّله من ذاته وتجرّده من ذاتيته يسمى إحساسا غيريّا تكون فيه «عناية واهتمام بخير الآخرين

1- مجمع اللّغة العربيّة: المعجم الفلسفي، ص133.
2- مجمع اللّغة العربيّة:المعجم الوسيط، باب الغين، (مادة الغيريّة)، ص668.
3- مجمع اللّغة العربيّة، المعجم الفلسفي، ص133.

وإيثار مصالحهم أحيانا على المصالح الخاصّة»[1]؛ فالغيريّة «نظرية الخير التي تضع في منطقها مصلحة نظرائنا، بصفتها هذه، كهدف للمسلك الأخلاقي»[2]؛ بحيث يعلو الإنسان على نفسه بخروجه عن ذاته ليحقق غايات خارجها يؤثر فيها مصلحة الآخر(الغير) على ذاته، حبًّا وطواعيته، ذلك لأنّها «شعور بالحب اتجاه الآخر: الشّعور الذي ينجم، غريزيا عن الأواصر القائمة بين الكائنات الحيّة من نوع واحد؛ أو ذلك الذي ينجم عن الرويّة والإيثار الفردي(إنكار الذّات)»[3] ، لتسمو فيها النّزعة الإنسانيّة فوق كلّ شيء.

1- جبور عبد النّور: المعجم الأدبي، ص188.

2- أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفيّة. مج 1(AG)، ص48.

3- المرجع نفسه، ص47.

1-11- التّرسّل لغة وإصطلاحاً:

أ- التّرسّل لغة:

جاء في لسان العرب لابن منظور في باب الرّاء من الجذر «رسل: رَاسَلَهُ مُرَاسَلَةٌ فهو مُرَاسِلٌ ورَسِيْلٌ، والرِّسْلُ والرِّسْلَةُ الرِّفْقُ والتُّؤدَّةُ.

والتّرسُّلُ كالرِّسْلِ والتّرسُّلُ في القراءة و التّرسِيْلُ واحد، قال وهو التّحقيق بلاَ عجلة.

وترسَّل في قراءته: اتَّأَدَ فيها. وفي الحديث: كان في كلامه ترسيلٌ أي ترتيلٌ؛ يقال: ترسَّلَ الرَّجل في كلامه ومشيه إذا لم يَعجل وهو و التَّرَسُّلُ سواء.

والتَّرسُّلُ من الرِّسلِ في الأمور والمنطق كالتَّمهُّل والتّوقّر والتَّثبّت. وجمع الرِّسَالَةِ الرَّسائلُ قال: إبن جُنْبَةَ: التَّرسُّلُ في الكلام التَّوقّر والتّفهُّمُ والتَّرفّقُ من غير أن يرفع صوته شديداً. والإرْسَالُ: التَّوْجِيْهُ، وقد أرسل إليه، والاسم الرِّسَالَةُ والرَّسَالَةُ والرَّسول والرَّسِيْلُ»[1].

وورد معنى التّرسّل في أساس البلاغة في مادة «رسل: وراسله في كذا. وبينهما مكاتبات ومراسلات، وتراسلوا وأَرْسَلْتُهُ بِرِسَالَةٍ، وبِرَسُولٍ وأرسلت إليه أَنْ

1- ابن منظور: لسان العرب. مج3، ج18، باب الرّاء، (مادة رسل)، ص1644.

افْعَلْ كذا وأرسل الله في الأمم رسلاً وتَرَسَّلَ في قراءته: تمهّل فيها و توقّر. و "إِذَا أَذَّنْتَ فَتَرَسَّلْ" وَ رَسَّلَ قراءته رَتَّلَهَا»[1].

ب- التَّرسّل اصطلاحاً:

يعدّ فنّ الرّسائل من الفنون الأدبيّة القديمة إذ أنّ العرب ربطته قديما بكتابة الإنشاء وهذا ما ذكره القلقشندي: «فأمّا كتابة الإنشاء فالمراد بها كلّ ما رجع من صناعة الكتابة إلى تأليف الكلام وترتيب المعاني من المكاتبات، والولايات، والمساحات، و الإطلاقات، ومناشير الإقطاعات، والهدن، والأمانات و الإيمان، وما في معنى ذلك ككتابة الحكم وغيرها»[2].

وبهذا يكون فنّنا نثريا له ميزاته الخاصّة يُتوخى من خلاله التّواصل؛ من حيث أنّه «كلّ ما يكتبه امرؤ إلى آخر معبّراً فيه عن شؤون خاصّة أو عامّة، وتكون الرّسالة بهذا المعنى موجزة لا تتعدّى سطوراً محدودة، ينطلق فيها الكاتب

1- أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزّمخشري: أساس البلاغة. تحقيق محمد باسل عيون السود، بيروت لبنان، دار الكتب العلمية، ط1، 1419هـ/1998م، ج1، ص353.

2- أبو العبّاس أحمد القلقشندي: صبح الأعشى. القاهرة مصر، دار الكتب المصرية، 1340هـ/1922م، ج1، ص54.

عادة على سجيّته، بلا تصنّع أو تأنّق. وقد يتوخّى حيناً البلاغة والغوص سجيّته، على المعاني الدّقيقة فيرتفع بها إلى مستوى أدبيّ رفيعٍ»[1].

ولأنّ البلاغ والبيان والمنشور من الوسائل الفعّالة في آليات التّواصل وإعداد الخبر وإرساله كان لزاما علينا أن نتطرّق لمفهوم هذه الوسائل التي تحمل في طيّاتها طابع الرّسائل وتداخلت –لمقتضى الحال– مع هذا الفن أثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر.

1–12– مفهوم البلاغ:

إنّ البلاغ هو «ما يُتَبَلَّغُ به ويُتَوَصَّلُ إلى الشيء المطلوب، والبلاغ: ما بَلَغَكَ»[2].

1–13– مفهوم البيان:

أمّا البيان «فهو اسم جامع لكلّ شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب»[3].

1– جبور عبد النّور: المعجم الأدبي، ص122.

2– ابن منظور: لسان العرب. مج1، ج3، باب الباء، (مادة بلغ)، ص346.

3– أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتّبيين. تحقيق عبد السّلام محمد هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي للطّباعة و النّشر و التّوزيع، ط7، 1418هـ/ 1998م، ج1، ص76.

1-14- مفهوم المنشور:

هو «كلّ نصّ خطي أو مطبوع موجّه إلى عدد كبير من النّاس ويتضمّن إعلاما بأمر من الأمور ويقال: أيضاً، منشورة»[1]، و «الغاية منه أن يوزع على أكبر عدد ممكن من القرّاء»[2].

1- جبور عبد النّور: المعجم الأدبي، ص268.

2- المرجع نفسه، ص268.

2- تطور فن الرّسائل في الأدب الجزائري:

يجمع الدّارسون لتاريخ الأدب العربي أنّه لم تقع بين أيدهم في عصر الفتوح الإسلاميّة أيّ قطع نثريّة أو شعريّة تعود لأدباء مغاربة و حتّى النزر القليل الذي وصل إليهم «من النثر و الشعر في عصر الولاّة (93-131هـ) فقد قاله مشارقة من الطّارئين على المغرب و الأندلس»[1].

لكن مع قيام أول دولة مستقلّة في المغرب العربي وهي الدّولة الرّستميّة (160-299هـ) في المغرب الأوسط (الجزائر) سطع نجم أدباء الجزائر سطوع نجم دولتهم «فعالجوا الشعر و أحسنوا معالجته، ولكن ظلّ يتّسم بسمات المدرسة الشرقيّة المحافظة، وأساليب هذا الشعر متينة بحيث لا نجد فيه اختلافا من حيث الصناعة عمّا يعرف عن شعر المشارقة على ذلك العهد، أمّا الإنشاء فهو مرسل مطبوع لا يلتزم فيه سجع و لا يتكلّف فيه توشية»[2]، فضاهى نتاجهم الأدبي نتاج إخوانهم المشارقة.

1- عمر فرّوخ: تاريخ الأدب العربي(الأدب في المغرب و الأندلس منذ الفتح إلى آخر عصر ملوك الطّوائف). بيروت لبنان، دار العلم للملايين، ط1، حزيران (يونيو)، 1983، ج4، ص46.

2- محمد الطمّار: تاريخ الأدب الجزائري. الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، 2010، ص74.

وقد نال فنّ الرّسائل في عهد الدّولة الرستميّة حيّزا واسعا من اهتمام الأدباء، و نجد منهم الإمام أفلح بن عبد الوهاب* الذي أثبت التّاريخ أنّ له رسائل و خطبا يتناولها «بأسلوب سهل و واضح، يساير العصر و يواكب الظّروف، ويظهر فيها سياسيّا محنّكا وناثرا حاذقا و خطيبا بليغا»[1]، ومن رسائله آخر رسالة –من مجموع رسائل تبادلها مع نفاث بن نصر من جبل أفوسة– ردّ فيها عليه بعدما طعن في أمانته و أكثر من نقده، و لطولها سنوردها مختصرة وفيها يقول:

«أمّا بعد فالحمد للّه المنعم علينا، المحسن الينا، الذي بنعمته تتمّ الصالحات، ولا يهتدي مهتد الا بعونه و توفيقه، فله المنة علينا، وهو المحسن الينا اذ هدانا لِدينه، وجعلنا خلفا من بعد اسلافنا الصالحين، وائمتنا المهتدين...و قد كتبت اليك غير كتاب، انصح لك فيه، وادعوك إلى رشدك، وفي كل ذلك لا يبلغني من عمالنا فيك الا ما أكره، و لا ارضاه لدين ولا دنيا، حتى حررت كتابا منشورا الى عمالنا، أمرتهم فيه بخلع كل من خالف سيرة المسلمين، وابتدع غير طريقهم، وسار بغير سيرتهم...فكتبت الى كتابا كأنك تسخط ذلك. اترى اني أوازر من ابتدع في ديننا

*– هو أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرّحمن ابن رستم متوفى (240هـ/754م)، ثالث الأئمّة الرّستميين من الإباضية في تيهرت بالجزائر، بويّع بعد وفاة أبيه سنة 190هـ، وكان داهية حازما فقيها، عمّر في إمارته ما لم يعمّر أحد ممن قبله، و عرف بقوّة السّاعد. انظر خير الدين الزّركلي: الأعلام(قاموس تراجم لأشهر الرّجال و النّساء من العرب و المستعربين و المستشرقين). بيروت لبنان، دار العلم للملايين، ط15، أيّار(مايو)، 2002، ج2 ، ص5.

1– محمد الطّمار: تاريخ الأدب الجزائري، ص74.

(كلا) ما كنت بالذي يفعل ذلك، ولا اوازر من يسعى في خلافنا ما كنا على الهدى. ثمّ قلت انا أمرنا في كتابنا بالبراءة منك، فان كنت كما كتب به الينا عمالنا فأنت محقوق بالبراءة ومقصى من جماعتنا، لاننا ما كتبنا كتابنا ذلك الا على كل من ابتدع في ديننا خلاف أسلافنا...فهو محقوق بالبراءة و مقصى من جماعة المسلمين، فان نكن انت منهم فأنت الذي أبحت البراءة منك، و أحللت بنفسك ما لابد لنا أن نفعله بك و بغيرك، و ان لم تكن كذلك فاظهر الانتفاء من ذلك، و كذب عن نفسك ما قيل عنك لتكون عندنا بالحالة التي تستحقها و تستوجبها...و اني غير كاتب اليك كتابا بعد هذا الا ان انتهى الينا ما نحبه، فننزلك من انفسنا بحيث تحب، و اللّه المستعان»[1].

تعاقبت بعد ذلك الولايات على الجزائر لكنّ التّرسل ظلّ محافظا على جودة صناعته، بل أينع و ازداد ازدهارا و تَمَكُّنا في أيدي المترسّلين أيّام الدّولة الحمادية؛ «فكان الإنشاء في هذا العصر يسير على النّظام المعهود من الكلام المرسل ولكن لم يلبث أن تأنّق الكتّاب في إنشائهم شأن المشارقة، فمالوا إلى

1- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدّول و الإمارات(الجزائر، المغرب الأقصى، موريتانيا، السودان). مصر القاهرة، دار المعارف مصر، ط2، ص228. نقلا عن الباروني: الأزهار الرياضية، ج2، ص195.

السّجع و التّزيين و التّنميق و تقليب الجمل على المعنى الواحد و لكن على غير إفساد في الذّوق و بدون أن تغلب الصّناعة على الفنّ»[1].

ولعلّ رسالة ابن الرّبيب القيرواني* التي بعثها إلى المغيرة بن عبد الوهاب بن حزم واصفا فيها تقصير أهل الأندلس في تخليد آثار علمائهم، و تفريطهم في تدوين فضائل بلادهم، تقف على هذا التّطور الحاصل لفن الرّسائل في عهد الدّولة الحماديّة حيث يقول ابن الرّبيب:

«كتبت يا سيدي، و أجلّ عُدَدي، كتب اللّه لك السّعادة، و أدام لك العز و السّيادة، سائلا مسترشدا، و باحثا مستخبرا، و ذلك أنّي فكّرت في بلادكم إذ كانت قرارة كلّ فضل، ومنهل كلّ خير ونبل، و مصدر كلّ طرفة، و مورد كلّ تحفة، وغاية آمال الرّاغبين، ونهاية أماني الطّالبين، إن بارت تجارة فإليها تجلب، و إن كسدت بضاعة ففيها تنفق، مع كثرة علمائها و وفور أدبائها و جلالة ملوكه و محبّتهم للعلم و أهله...فتنافس النّاس في العلوم، و كثر الحذّاق في جميع الفنون...ثمّ هم مع ذلك في غاية التّقصير و نهاية التّفريط. فعلمائكم مع استظهارهم

1- محمد الطّمار: تاريخ الأدب الجزائري، ص118

*- هو الحسن بن محمد التّميمي التاهرتي(340-420هـ/951-1029م)، يعرف بابن الزّبيب: شاعر، أديب، نحوي، نسابة أصله من تاهرت و نشأ في القيروان. انظر عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر. بيروت لبنان، مؤسّسة نويهض للثّقافة و التّأليف و التّرجمة و النّشر، ط2، 1400هـ/1980م، ص158.

على العلوم كلّ امرئ منهم قائم في ظلّه لا يبرح، و راتب على كعبه لا يتزحزح. يخاف إن صَنّفَ أن يُعنّف، و إن أَلّف أن يُخالفَ و لا يؤالف، أو تخطفه الطّير أو تَهوِي به الريح في مكان سحيق، لم يتعب أحد منهم نفسا في جمع فضائل أهل بلده، و لم يستعمل خاطره في مفاخر ملوكه، و لا بلّ قلما بمناقب كتّابه و وزراءه، و لا سوّد قرطاسا بمحاسن قضاته و علمائه...»[1].

إنّ أوّل ما يأسرك و أنت تقرأ رسالة ابن الرّبيب هذه هو تلك العبارات المترادفة دون تكلّف و الألفاظ القويّة المحكمة، و تلك الاقتباسات القرآنية الحسنة الوضع، و هذا الحذق في صناعة هذه الرّسالة شاهد على ازدهار فنّ الرّسائل في هذه الفترة من تاريخ الجزائر الأدبي.

استمرّ كتاب الرّسائل في تأنّقهم بعد سقوط الدّولة الحمّادية و تولّي الموحّدين حكم بجاية، مواكبين ما أحدثه الموحدون من نهضة في الأدب والعلوم و الحضر بلغت شأنا عظيما متأثرين بمن كان ينزل بجاية من الأندلسيين المتصوفين فازْدَانَتْ رسائلهم بالسّجع «وأخذوا يتأنّقون في كتاباتهم الأدبيّة و اندمج ذوقهم في الذّوق الأندلسي الأنيق»[2].

1- أحمد بن محمد المقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب. تحقيق إحسان عبّاس، بيروت لبنان، دار صادر، 1388هـ/ 1968، مج3، ص(156-158).

2- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدّول و الإمارات(الجزائر، المغرب الأقصى، موريتانيا، السّودان)، ص236.

ومن بين المترسلين في هذا العصر أو عبد اللّه بن محرز الوهراني* الذي كان له «استعداد فطري بالنّزوع إلى التّعبير الرّشيق و الفكرة المرحة السّاخرة و الخيال المحلّق العابث»[1]، سالكا في ذلك أثر الجاحظ و بديع الزّمان و الحريري و أبي العلاء المعري؛ فجاءت رسائله مطبوعة بطابع التّنكيت، بسيطة الأسلوب، مسجوعة الألفاظ. و منها الرّسالة التي بعث بها إلى القاضي الأثير بن بنان يتعلّل عليه لئلاّ يفطر عنده في شهر رمضان فيها يقول:

«كلّما ذكر الخادم تلك المائدة الخصيبة، و ما يجرى عليها من الخواطر المصيبة، علم أنّ التّخلف عنها هو المصيبة، لكنّه إذا ذكر ما يأتي بعدها من القيام و القعود و الرّكوع و السّجود، علم أنّ أجرة ما يأكله في تلك الوليمة نحوا من عشرين تسليمة؛ كلّ لقمة بنقمة ما تحصل له الشعبة إلاّ بأربعين ركعة، فتكون الدّعوة عليه لا له، والحضور في الشرطة أحب إليه منها له، فتزهد الخادم حينئذ في الوصول وقنع بالمحصول، إذ ليس له من الدّين و لا مـــن قوّة اليقين ما يهجر

*- هو محمد بن محرز بن محمد الوهراني ركن الدّين، أبو عبد اللّه: المتوفى (575هـــ/1179م)، أديب صناعة الإنشاء، كان بارعا في الهزل و السّخرية، نشأ بوهران و رحل إلى المشرق فمرّ بصقلية، ودخل دمشق ثمّ زار بغداد، و القاهرة، وعاد إلى داريا و توفي فيها، له "جليس كل ظريف" توجد مخطوطة منه بجامعة برنستن بالولايات المتّحدة الأمريكية، جمع فيه الكثير من رسائله وفصوله الهزلية و "المنامات". انظر عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص350. بتصرّف.

1- محمّد الطّمار: تاريخ الأدب الجزائري، ص160.

معه مواجهة الوجوه القمرية بمشاهدة السنّة و الصوفية، و لا يترك الرّاحة تحت المراويح إلى القيام بسنّة التّراويح، لأنّه في ذلك على رأى القاضي النّجيب، الذى إذا دعى إليها لا يجيب، فموعد الإلمام انقضاء شهر الصّيام، و السّلام»[1].

فالرّسالة كما نلاحظ تنبعث منها روح الدّعابة و التّسلية، لا نجد مشقّة في فهم معانيها، وقد جاءت مثقلة بالأسجاع كقوله (تلك المائدة الخصيبة، و ما يجري عليها من الخواطر المصيبة)، (ما يأكله في تلك الوليمة نحوا من عشرين تسليمة)، (كلّ لقمة بنقمة)...

أخذت الرّسائل بعد ذلك أيّام الحفصيين و المرينيين و بني عبد الواد تنزلق في منحدر التّملق للحكّام و أصبح كتّابها يتصيّدون من الألفاظ أنيقها ومن المعاني أحلاها ففقد فنّ الرّسائل بريق طبع لازمه في أعصر خلت و نستدل على ذلك برسالة لواحد من الذين عاصروا الدّولة المرينية وهو ابن مرزوق الخطيب الجد*، و الذي كان له «ترسّل و نظم ليسا من الطّبقة العليا، و لكنّهما يمثلان عصره

1- ركن الدين محمد بن محمد بن محرز الوهراني: منامات الوهراني و مقاماته و رسائله. تحقيق ابرهيم شعلان و محمد نغش، كولونيا ألمانيا، منشورات الجمل، ط1، 1998، ص212.

*- هو محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التّلمساني، يكنّى أبا عبد اللّه، و يلقب من الألقاب المشرقية بشمس الدّين، كان مقدّر الألفاظ، عارفا بالأبواب، دربا على صحبة الملوك و الأشراف، ممزوج الدّعابة بالوقار و الفكاهة بالنّسك و الحشمة بالبسط. انظر أحمد المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب. مج5، ص391.

و ينطقان بفضله»[1]، وقد بعثها إلى لسان الدّين بن الخطيب عند قدومه إلى مدينة فاس حاملا رسالة إلى السّلطان أبي عنان، فأشار له فيها بفضل أبي عنان قائلا في جزء منها:

«يا قادمـــا وافـــى بكـــلّ نجـــاح أبشـــر بما تلقاه من أفـــــــراح

هذي ذرى ملك الملوك فَلُذْ بـــــها تَنَل المنى و تَفُزْ بكـــــلّ سَمَاح

مغنى الإمـــام "أبي عنان" يمّمَـــنْ تَظْفَرْ ببحر في العـــلا طفّـــاح

من قاس جود "أبي عنان" في النّدى بسواه قاس البحـــر بالضحضاح

ملك يفيض على العفـــاة نوالُـــــه قبل السّؤال وقبل بسطـــــة راح

بسط الأمان على الأنام فأصبحـــوا قد ألحفوا منه بظـــــل جنـــــاح

فالحمد للّه ! يا سيّدي و أخي، على نعمه التي لا تحصى، حمدا يؤم به جميعنا المقصد الأسنى، فيبلغ الأمد الأقصى، فطالما كان معظم سيّدي للأسى في خَبَال، و للأسف بين إشغال بال، واشتغال بلبال و لقدومكم على هذا المحل المولوي في ارتقاب، و لمواعيدكم بذلك في تحقّق وقوعه من غير شك و لا ارتياب، فها أنت تجني من هذا المقام العلي بتشيّعك وجوه المسرّة صباحا، و تتلقّى

1- عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي الأدب في المغرب و الأندلس (من أوائل القرن السّابع إلى أواسط القرن العاشر للهجرة أوائل القرن الثالث عشر إلى أواسط القرن السادس عشر للميلاد). بيروت لبنان، دار العلم للملايين، ط1، حزيران (يونيو) 1983، ج6 ص547.

أحاديث مكارمه و مواهبه مسندة صحاحا. بحول اللّه تعالى، و لسيّدي الفضل في قبول مركوبه، الواصل إليه بسرجه و لجامه، فهو من بعض ما لدى المعظّم من إحسان مولاه و إنعامه و لعمري لقد كان وافدا على سيّدي في مستقرّه مع غيره، فالحمد للّه الذي يسرّ في إيصاله على أفضل أحواله»[1].

ولمّا وقعت الجزائر في قبضة الأسبان «كثرت المحن و تألّمت الجزائر، فالأدب هو الآخر أخذ الضّعف يدبّ في مفاصله و قلّ رجاله، و لم يبق من الحركة الفكريّة التي طالما ازدهرت قبل هذه الفترة إلاّ ذلك البصيص النّافذ من بيوتات عُرفت بالعلم من قديم»[2].

وظلّ الأدب على هذا الحال حتى استنجد الشّعب الجزائري بالأتراك فخلّصهم من طغيان الأسبان، لكنّهم زادوا في جفاف الحركة الأدبيّة و شُحِّ روّادها، وضعف إنتاجهم، ذلك أنّ الأتراك كانوا رجال جهاد و حرب لا رجال علم و أدب، فَمُنِيَ فنّ الرّسائل في عهدهم كغيره من الفنون النّثرية بالرّكاكة و الضّعف فكثر فيه الاهتمام بالأسجاع و توسّل الزخرف اللّفظي.

1- محمد الطّمار: تاريخ الأدب الجزائري، ص(299،300).

2- المرجع نفسه، ص324.

ويعود ضعف الرّسائل في عهد الأتراك إلى عدم اتخاذ اللّغة العربيّة لغة للرّسائل و المنشورات الدّيوانية، إلاّ في عهود باشوات أو وّلاة معدودين الذين اعتمدوا في الكتابة الديوانية العربية كتّابا حسبهم أنّهم يكتبون «بلغة مسجوعة لا تخلو من ضعف و ركاكة أحيانا»[1]، ومن ذلك رسالة لمحمد القالي قدّمها لمحمد بكداش طالبا العون يقول فيها:

«جلّ الله تعالى مالك الملك و مقيم قسطاس العدل بما أراده من إعزاز السّادات التّرك، جمع سبحانه و تعالى بهم كلمة الدّين الحنيف، وآثرهم بهذا الملك الكبير و هذا العزّ المنيف، وشرّفهم بما وهبهم من الرّتب العاليّة و هم أصل للرّفعة و التّشريف، و خصّهم بمكارم الأخلاق و نزاهة الأقدار، و جعلهم بهذا القطر رحمة للعباد، و أخمد بشوكتهم نار الفتنة و العناد فسلكت بهم السّبل، وأمنت بهم البلاد، لطفا منه سبحانه بهذه الأقطار، نسأل الله أن يبقى جنابهم السّعيد عاليا على كل جناب، وأن يخلد الملك فيهم على مرور الدّهور و انقضاء الأعمار...وبعد فإنّ اللّه تعالى منّ على المسلمين لسيّدنا و مولانا سلطان الملوك و الأكابر، المخصوص بأفضل الشّمائل والمآثر، الإمام العادل، السّلطان الفاضل، العالم العامل، صلاح الدّنيا و الدّين سلطان الإسلام و المسلمين، الذي أطلعه اللّـــه فـــي

1- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، عصر الدّول و الإمارات (الجزائر، المغرب الأقصى، موريتانيا، السّودان)، ص232.

سماء الجلالة بدرا، ورفع له في درجات الأمراء قدرا، وأجرى له على ألسنة الخلق ثناء جميلا و ذكرا، فأصبح الدّين مبتهجا بكريم دولته، وجناب الكفر مهتظما بعظيم صولته»[1].

يظهر من خلال الرّسالة أنّ القالي بالغ في مدح بكداش و أكثر من الدّعاء له و ذكر ألقبه حتّى سقطت رسالته في أحضان التّكلّف و التّملّق.

وممن اشتهر بكثرة مراسلاته في هذا العصر نجد عبد الكريم الفكون* الــذي كان من الأدباء الذين تبادلوا «الرّسائل في أغراض شتّى كإعراب مسألة، والإخبار بكتاب ألّف، والتّعزية في فقيد وبحادث سعيد، والاعتذار، وحلّ لغز أدبي، والتّوصية على قريب أوصديق، ونحو ذلك من الأغراض الاجتماعية»[2]، ومن مراسلاته مع عدد من علماء عصره من الجزائريين رسالة بعثها إلى المقري سنة

1- أبو القاسم سعد اللّه: تاريخ الجزائر الثّقافي. الجزائر، دار البصائر، طبعة خاصة، 2007، ج2 1500- 1830، ص(188،189).

*- هو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفكون، المتوفى (1073هـ/1663م)، أديب، نحوي، محدث، جمع بين علمي الظّاهر و الباطن، كان عالم المغرب الأوسط في عصره، من أهل قسنطينة، توفي بقسنطينة بالطّاعون، له: "شرح" على البسط و التعريف في علم التّصريف للمكودي، و"شرح" على شواهد الشّريف على الأجرومية، و "محدّد السّنان في نحور إخوان الدّخان" رسالة في تحريم الدّخان، و "ديوان" في مدح النّبي الكريم (صلّى اللّه عليه و سلّم)، و "شرح" جمل المجراد و مخارج الحروف من الشّاطبية، وتأليف في "حوادث فقراء الوقت". انظر عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص254.

2- أبو القاسم سعد اللّه: تاريخ الجزائر الثّقافي. ج2 1500- 1830، ص195.

1038هـ، والتي يشكو له فيها نفسه الأمّارة بالسّوء التي ستودي به لا محالة إلى الهلاك إذا انقاد وراءها، ويطلب منه الدّعاء بصلاحها وتوبتها يقول في جزء منها:

«بسم اللّه الرّحمن الرّحيم و صلّى اللّه على من أنزل عليه في القرآن: ﴿وإِنَكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيْمٍ﴾ (القلم: 4) و آله وصحبه و سلّم أفضل التّسليم. من مدنّس الإزار المتسربل بسرابيل الخطايا والأوزار، الرّاجي للتّنصل منه رحمة العزيز الغفّار، –سبحانه–، عبد اللّه عبد الكريم محمد بن الفكون، أصلح اللّه بالتّقوى حاله، وبلّغه من متابعة السّنّة النّبوية آماله، إلى الشّيخ الشّهير، الصّدر النّحرير، ذي الفهم الثّاقب والحفظ الغزير، الأحب في اللّه المؤاخي من أجله سيدي أبي العبّاس أحمد المقري. أحمد اللّه عاقبتي و عاقبته، و أسبل على الجميع عافيته، أمّا بعد فإني أحمد اللّه إليك و أصلّي على نبيّه سيدنا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و لا أريد إلاّ صالح الدّعاء و طلبه منكم، فإني أحوج النّاس إليه، و أشدّهم في إلحاحا عليه، لمّا تحقّقت من أحوال نفسي الأمّارة، و استبطنت من دخيلائها المثابرة على حبّ الدّنيا الغرّارة، كأنّها عميت عن الأهوال، التي أشابت رؤوس الأطفال، وقطعت أعناق كمل الرّجال، فتراها في لجج هواها خائضة، وفي ميدان شهواتها راكضة، طغت في غيّها و ما لانت، وجمحت فما انقادت و لا استقامت، فويلي ثمّ ويلي من يوم تبرز فيه القبائح و تنشر الفضائح، و منادي العدل قائم بين

العالمين، ﴿وإِنَ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وكَفَى بِنَا حَاسِبِيْنَ﴾ (الأنبياء: 47)، فاللّه أسأل حسن الإلطاف، و السّتر على ما ارتكبناه من التّعدّ و الإسراف، و أن يجعلنا من أهل الحمى العظيم، و ممن يحشر تحت لواء خلاصته الكريم، و سيدنا و مولانا و شفيعنا النّبي الرّؤوف الرّحيم...»[1].

على الرّغم من أنّ الرّسالة تحمل معان بسيطة و أسلوبا سهلا إلاّ أنّ الفكون اتخذ من السّجع و الزّخرف اللّفظي مطيّة لإظهار إسراف نفسه في الشّهوات و الآثام، حتّى بالغ في ذكر معاصيه، و الرّسالة كما هو ظاهر تتضمّن آيات و اقتباسات من القرآن الكريم و اشتملت بعض الأبيات الشّعرية في آخرها لم نوردها، وهي أسالب إنشائيّة حوتها رسائل هذا العصر.

1- أحمد المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب: مج2، ص(480-482).

3- <u>التّرسل في الأدب الجزائري خلال القرنين التّاسع عشر والعشرين الميلاديين</u>:

ولّى عهد العثمانيين، و زالت غشاوته على الأدب عموماً، و فن الرّسائل خصوصاً لكن ترك وراءه كتابة إنشائيّة مهلهلة، معتلّة الأسلوب، مختلّة التّراكيب، ترسف في التّكلف، وإظهار البراعة اللّفظية، وكثرة البديع. وهذا ما غلّف هذا الفن مع بدايات القرن التّاسع عشر ميلادي في الجزائر؛ إذ نلمح في رسائل هذه الفترة صوراً لا تثير فينا لذّة، ولا تحمل لنا أيّة متعة فنيّة بقدر ما تعجّ بالاستعارات و ألوان البديع، من جناس وطباق...،كان الكاتب يسعى من خلال توظيفها قصداً لإظهار قدراته، و «تمكّنه من اللّغة العربيّة واستيعابه لمفرداتها و أساليبها»[1].

ولعلّ خير شاهد على هذا اللّون من الكتابة رسالة تنسب لحمدان خوجة* بعث بها من لندن إلى شيخه "سيدي علي بن محمد" ليعبّر له فيها عن وفائه له وشوقه إليه، إذ يقول في بدايتها:

1- عبد اللّه الركيبي: تطور النّثر الجزائري الحديث 1830-1974. ليبيا تونس، الدّار العربية للكتاب، ط1، 1398هـ/1978م، ص37.

*- حمدان بن عثمان خوجة: (1189-1255هـ/1775-1840م) كاتب سياسي من روّاد الحركة الوطنيّة الجزائريّة، ولد بمدينة الجزائر وبها نشأ وتعلّم، درس القانون على يد أبيه، ثمّ قام مقامه بعد وفاته، و أصبح أستاذاً في الحقوق المدنيّة والقوانين الإسلاميّة. قارع حمدان الاستعمار الفرنسي بقلمه ولسانه، فنفاه الفرنسيون من الجزائر، سافر إلى القسطنطينيّة حيث اشتغل بالتّأليف والتّرجمة، والتّحرير لجريدة "تقويم وقائع" إلى حين وفاته. من آثاره "المرآة" و"حكمة العارف بوجه ينفع لمسألة ليس في الإمكان أبدع". ينظر عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص136. بتصرّف.

«الحمد لله و صلّى الله على سيّدنا محمّد و على آله و صحبه وسلّم، سعدت إذ سعدت بك الخليقة، واستترت إذ كنت مظهر أنوار الشّريعة و الحقيقة، باليمن دهر ختم بمعاليك كمالاته، و واجهك سعد السّعود إذ توجك أنفس هالاته فكنت يمين اليمن والبركة وقدوة السّكون والحركة، تنثال لديك طرائف المعارف فتقتبس، و تنتمي إليك معاقد المعالي فلا ترام، و لا تختلس حتّى أيقنت الأفاضل بأنّك مدار الشّرف و أذعنت الأعادي بسعادة كونك بقية السّلف الأمين على السّر المصون، حامل لواء الإمارة من العلم المكنون، تاج الملّة الحنيفة ومجدّد تاجها ونتيجة الهمّة العاليّة و مادة نتاجها»[1].

لكنّ هذا الفن خلال هذه الفترة سلك طريقاً شاذاّ على أيدي الأمير عبد القادر الذي لو جمعت مراسلاته لجاءت في مجلّد «فالّرجل كان علماً من أعلام العصر، وكان قاصداً و مقصوداً في حياته كتب مجيباً على أسئلة، و كتب مستفسراً، و كتب شاكراً، و مادحاً، ومعزياً، و مهنّئاً»[2]. لذلك جاء نتاجه في هذا الفن غزيراً وبقدر غزارته كان مجيداً لأبجدياته، متقناً لصنعته، و قد عرف معه «بعض التّحرر من مظاهر الصّنعة الموروثة معنى و مبنى»[3]؛ ذلك أنّ الأميـــر يستوحـــي و يستمـــد

1- عبد اللّه الركيبي: تطور النّثر الجزائري الحديث 1830- 1974، ص38.

2- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثّقافي. ج8، ص91.

3- محمد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس). الجزائر، مطبعة الكاهنة، 2003، ص35.

أسلوب كتابته من القرآن الكريم و السّنّة النّبويّة الشّريفة، و التراث الأدبي العربي القديم «مع روح تجديدية متوثبة فكرة وشعوراً و طريقة»[1]؛ فاتسم أسلوبه بالسّهولة والوضوح دون قصد لغريب اللّفظ و مهجور الكلم، ولا استجلاب لألوان البديع إلاّ ما جاء عفواً «لذا يعد عبد القادر واحد من تلك الفئة المجدّدة التي جفت الطّرق المتكلّفة و أنست إلى الأسلوب المرسل المطبوع»[2]. ويؤكد هذا ما كتبه الأمير جواباً عن سؤال قدّمه بعض الأعيان من خواصه:

«الحمد لله حمدا يوافي نعمه ويكافئ مزيده و صلى الله على سيّدنا محمّد و آله ومن تبعه وجرى على منواله، اللّهم إنّي أعوذ بك من معضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن نضرّع إليك يا مقلب القلوب أن تثبّت قلوبنا على ديننا المحبوب أمّا بعد:

يا أخي إني رأيتك متعطّشاً ما لأئمتنا من الكلام في هؤلاء الذين ركنوا للعدوّ فأحببت أن أذكر لك ما روي عنهم في ذلك، ولولا أنّني رأيت شدّة تعطّشك و أوامك ما ذكرت لك شيئاً ممّا هنالك إذ ربما تفنى في نصيحة أولئك الجهلة باقي أيّامك من غير طائل ويكون تعبك فـــي علاجـــهم كتعب مـــن رام إصلاح الفاسد

1- عمر بن قينة: في الأدب الجزائري الحديث تاريخا..و أنواعاً، و قضاياً..وأعلاماً. الجزائر، ديوان المطبوعات الجزائرية، ط2، 2009، ص15.

2- محمد الطمّار: تاريخ الأدب الجزائري، ص372.

أو حياة الهالك. وهل يصلح العطّار ما أفسد الدّهر.

واعلم أنّ الرّاكن إلى الكفار الدّاخل تحت ذمّة أهل البوار أحد رجلين إمّا رجل كذب الله في ضمانه لرزقه نعوذ بالله من كفره و حمقه و قال إن هاجرت متّ جوعاً وازداد بذلك هلوعا واعتقد أنّ وطنه هو رازقه لا أنّ الذي يرزقه هو موجده وخالقه... وإمّا رجل متكالب على الدّنيا أصمّه وأعماه حبّها يريد الظّفر بها سواء كان ذلك بالإسلام أو الكفر وكلا هذين الرّجلين لا يرجى صلاحهما ولا يؤمل نجاحهما ﴿وَ مَنْ يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الذِيْنَ لَمْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوْبَهُمْ لَهُمْ فِيْ الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِيْ الآَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيْم﴾[1]....»[2].

فهذا الأنموذج خير بيان على أسلوب الأمير في كتابة رسائله فهو يستند فيها على المنطق السّليم وكتاب اللّه الحكيم؛ فجاءت رسالته ترصع بالقوّة في التّعبير، وسلامة الذّوق، ورصانة الحجج، وسهولة في العبارات، فنراه فيها يطوّع اللّغة للتّعبير بسهولة ويسر حتى جعل منها «أداة مرنة صالحة لصياغة المعاني الدّقيقة و الأفكار العميقة»[3].

1- سورة المائدة: الآية41.

2- الأمير عبد القادر: تحفة الزّئر في مآثر الأمير عبد القادر و أخبار الجزائر(سيرته السّيفيّة). مصر، المطبعة التّجاريّة، 1903، ج1، ص286.

3- عبد اللّه الركيبي: تطور النّثر الجزائري الحديث 1830-1974، ص40.

والمتتبّع لرسائل الأمير يقف على أنّه يَهْجُمُ على موضوعات رسائله في تفصيل كما هو الحال في هذه الرّسالة وأحياناً أخرى في إيجاز «ويعبّر عن رأيه دون تنميق أو زخرفة في القول»[1]. وهذا ما يظهر في رسالته التي ردّ فيها على الجنرال بيجو عندما كتب إليه يعرض عليه الصّلح قائلا:

«...أمّا بعد، وصلني كتابكم واحتطت به علماً، فذكرتم أنّ دولة فرنسا أمرتكم بإجراء الصّلح إن أمكن وإلاّ فاستعمال السّيف مع أنّ دولة فرنسا تعرف أنّني أشدّ النّاس رغبة في حصول العافية و أشدّهم بغضاً لسفك الدّماء بدون موجب شرعي، وإنّها لتعلم أنّني راغب في عقد الصّلح وإقامة دعائمه على أساس قوي لا يتضعضع ويشهد لذلك ما خابرتها به على يد سفيرها في طنجة، فإن ساعدت العناية الإلهيّة على إجراء هذا الأمر على يدكم، فهو دليل على صفاء طويتكم لعباد الله تعالى، وصدق خدمتكم للدّولة والشّعب معاً...»[2].

وقد عرف فنّ الرّسائل مستوى رفيعاً مع إدارة الأمير؛ على الرّغم من أنّ الرّسائل الديوانيّة (الإداريّة) لم يكن فيها عناية بالأدب من الجانبين الفرنسي والجزائري، لكنّ الأمير جنّد «مجموعة من الكتاب المتأدّبين بعضهم معروف

1- المرجع السّابق، ص41.

3- الأمير محمد عبد القادر: تحفة الزّائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر(سيرته السّيفيّة). ج1، ص172.

بالاسم مثل: قدور بن رويلة، ومحمّد الخروبي*، وأحمد البدوي، ومحمّد بن التّهامي و بعضهم غير معروف لنا الآن»[1]؛ فعملوا جاهدين على إخراجها في أحسن صورة وأرقى كتابة فجاءت الرّسائل الصّادرة عن إدارة الأمير العامة «متقيّدة بقواعد اللّغة محافظة على الأساليب العربيّة في الحكمة والمثل والاستشهاد بالشّواهد والإيجاز»[2]، وهذا ما نلمسه في الرّسائل السّابقة التي وجّهها الأمير إلى الجنرال بيجو على سبيل المثال لا الحصر.

وبهذا نجد أنّ طريقة الأمير في الكتابة مكّنت هذا الفن من أن يسترجع شيئاً من بريقه هذا من جهة، ومن جهة أخرى ساهم الأمير بأسلوبه في جعل النّثر يخطو خطوة كبيرة نحو التّخلص من الرّكاكة و التّكلف.

غير أنّ محاولة الأمير بقيت ومضة منفردة لم تشفع للظاهرة الأدبيّة بالبقاء وطول النّفس «ممّا جعل الأمر يبدو بمثابة نقطة يتيمة مضيئة وسط بحر من الظّلام

*- هو محمّد بن الخروبي القلعي (ولد 1279هـ/ توفي1862م): من كتّاب و ولاّة الأمير عبد القادر الجزائري أثناء ثورته التّحريريّة على الاستعمار الفرنسي، ولّي على مقاطعة مجانة، ثمّ عيّن، بعدها للكتابة، ثمّ ولّي عل سطيف، وقع في أسر الفرنسيين، و أطلقوه، فهاجر إلى المشرق و استقرّ في دمشق، مات بها ودفن في مقبرة الدّحداح. ينظر عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص132. بتصرّف.

1- أبو القاسم سعد اللّه: تاريخ الجزائر الثّقافي. ج8، ص86.

2- المرجع نفسه، ص86.

والجمود»[1]، وما يؤكد هذا مرور فترة طويلة على ظهور الأمير لم تعرف فيه السّاحة الأدبيّة الجزائريّة أدباء بارزين استطاعوا أن يحافظوا على هذا القبس الأدبي، وبالتّالي لم يسيروا على خطاه في كتابة الرّسائل، فعرف الترسّل تدهوراً ملحوظاً مع أواخر القرن التّاسع عشر ميلادي «بحيث لا نجد في هذه الفترة إلاّ نوعاً من الرّسائل كتبها بعض الجزائريين لا بهدف التّعبير عن الذّات أو الكشف عمّا في النّفس، وإنّما كتبت كقوالب محفوظة جاهزة يكتب على نسقها من وقعت له حادثة ويريد أن ينقلها إلى الإدارة مثلاً، فهي رسائل للشكوى والتّظلّم أو لغير ذلك من الأمور العاديّة التي تحدث للنّاس يومياً»[2].

ولم يسترجع فنّ الرّسائل شيئاً من بريقه إلا ّمع بدايات القرن العشرين الميلادي عندما عرفت الحياة الفكريّة و الأدبيّة بوادر حراك فكري أنعش الأدب بعد غيبوبته لغةً وأسلوباً؛ إذ ظهر أدباء أثروا السّاحة الأدبيّة بأبحاثهم الغزيرة و نتاجهم الوفير.

1- عمار زايد: النّقد الأدب الجزائري الحديث/ الجزائر، المؤسّسة الوطنية للكتاب، 1990، ص 13.

2- عبد اللّه الركيبي: تطوّر النّثر الجزائري الحديث1830-1974، ص46.

ونجد من بين هؤلاء الأدباء محمد بن أبي شنب* الذي صنّفه البعض «مع المصلحين المجددين الذين يقفون بين الأصالة والمعاصرة ويحاولون التّوفيق بينهما و الإضافة من أعمالهم وإنتاجهم الجديد»[1]، ونلمح هذا الثّوب القديم الجديد في رسائله الشّخصيّة ذلك أنّ الرّجل يعدّ «أحد الذين تطور الأسلوب الأدبي على أيديهم تطوراً واضحاً متقدماً خطوات عن ذي قبل رغم إبقائه على سطوة السّجعة وغرابة اللّفظ في بعض كتاباته»[2]، ويظهر ذلك من خلال الرّسائل التي وجهها إلى محمد كرد علي والتي اخترنا منها الرّسالة التالية:

«الجزائر في 3 ربيع الثّاني،1347هـ.

سيدي الرّئيس الهمام، أدام لنا وجودكم بين العلماء الكرام.

---

*- هو محمد بن العربي بن محمد بن أبي شنب (1869م-1286هـ/1929م-1347هـ) باحث، عالم بالأدب ولد بالمدية وتعلّم بها و بمدينة الجزائر، التحق بالتّعليم سنة1888 وعيّن أستاذاً للعربيّة بكلية الجزائر، منحته الجامعة الجزائريّة لقب دكتوراه في الأدب سنة 1920م، انتخب عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق في نفس السّنة، وفي سنة 1924انتخب عضواً في المجلس الاستعماري بباريس، توفي بمدينة الجزائر، وصنّف كتباً منها: "تحفة الأدب في ميزان أشعار العرب" و"أبو دلامة وشعره" و"شرح لمثلثات قطرب"...كما عني بتصحيح وتحقيق و نشر عدّة كتب من نفائس التّراث العربي منها: "البستان" و "رحلة الورتلاني" و"الذخيرة السّنية في تاريخ الدّولة المرينية" وغيرها. انظر عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص(189،190).

1- عبد الكريم بوصفصاف: الفكر العربي الحديث و المعاصر(محمد عبده و عبد الحميد بن باديس) نموذجا. قسنطينة الجزائر، دار مداد، ط1، 2009، ج1، ص152.

2- عمر بن قينة: في الأدب الجزائري الحديث تاريخا..وأنواعاً، وقضاياً..وأعلاماً، ص45.

السّلام عليكم ورحمة اللّه تعالى وبركاته وتحياته ورضوانه. ما تغنّت أطيار البستان وتمايلت أغصانه.

أمّا بعد فإنّي لا أنسى أوقاتاَ كنتم لي فيها أنساً و إنّ كانت قليلة. فقد دلتني على سجاياكم السّنية وبرهنت على مزاياكم الألمعيّة وعوارف معارفكم الأصمعيّة، و أرى من الواجب أن أعيد لحضرتكم الشّكر الكثير والدّعاء لكم بكلّ فضل وخير. وعند إيابي إلى مسقط الرأّس، وجدت عدداً من مجلّة المجمع العطرة الأنفاس، وبينما كنت أتروّى بوصل وأسرح العين بين ياسمين وفلّ، إذ لمحت وردة ظهر لي فيها شوكاً أو حسكاً، فحاولت إزالته دركا، فلم أقدر على نزعه بالتمام، وناديت يا رئيس يا إمام، يا مشرق مغرب، يا من لا يحتجب عنه مطلب: هذه مسألة مشكلة، ونكتة مغلقة مقفلة، لا يحلّها إ لاّ حبر المشرق، المحقّق المدقّق:

إنّ لم تكن لأخي السّؤال فمن يامن صرفت له الرّجاء فما له

هذا وإن كانت لكم رغبة في طبع قصيدة ابن دريد مع شرحها في المجلّة الغرّاء أرسلها إليكم مع جميل الثناء، واعلموا أنّ الجميع لا يتجاوز ثماني صفحات عدد أبواب الجنّات.

حبيبكم الحميم محمد بن أبي شنب»[1]

فديباجة هذه الرّسالة تقليديّة إلى حدّ كبير، انتهج فيها ابن أبي شنب نهج السّلف؛ إذ أنّ مقدمتها قصيرة، وصياغتها متينة، و على الرّغم من التّلغيز والتّلميح المقصودان فيها إلاّ أنّ ألفاظها سهلة ومعانيها واضحة، لكن كما ذكرنا سابقاً فإنّ ابن أبي شنب في هذه الرّسالة لم يستطع أن يتحرّر من سطوة السّجعة وتخيّر اللّفظ كقوله: السّنيّة، الألمعيّة، الأصمعيّة، شوكاً أو حسكاً، ومع ذلك فإنّه مسح القليل من غبار الضّعف الذي غطّى هذا الفن.

أمّا مع ظهور الحركة الإصلاحية فقد استرجع فنّ الرّسائل بريقه على أيدي أعلام الإصلاح «الذين خاضوا به غمار الواقع بيسر ووضوح و التزام»[2]، هذا من حيث الطّريقة والأسلوب، أمّا اللّغة فقد استعادت ما كانت تتمتّع به من نّصاعة وبيان، ونستشف هذا في رسائل الشّيخ البشير الإبراهيمي الذي يعدّ أدب الرّسائـــل

1- أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب و الرّحلة، الجزائر، المؤسّسة الوطنية للكتاب، 1983، ص(85،86).

2- محمد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص36.

من الصّياغة الفنيّة و الظواهر الجماليّة»[1]، ولعلّ رسالته مناجاة مبتورة لدواعي الضّرورة* أحسن بيان على ما ذكرناه والتي يقول في مطلعها:

«سلام يتنفّس عنه الأقاح بأزهاره وإيراقه. ويبتسم عنه الصّباح بنوره وإشراقه.

وثناء يتوهّج به من عنبر الشّجر عبيره، و يتبلّج به من بدر التّمام، على الرّكب الخابط في الظّلام؛ منيره...

وسلام من أصحاب اليمين، وغيوث من صوادق الوعود، لا صوادق الرّعود، لا تخلف و لا تمين. وسحائب من الرّحمات تنهل سواكبها، وكتائب من المبشرات تزجى مواكبها و سوافح من العبرات تتحمّل عزاليها، و لوافح من الزّفرات تسابق أواخرها أوّليها.

على الجدث الذي التأمت حافتاه على العلم الجمّ، والفضل العدّ، ووارى ترابه جواهر الحجا والذّكاء، والعزم والجدّ. وطوى البحر الزّخار في عدّة أشبار فأوقف

1- محمد عبّاس: البشير الإبراهيمي أديبا. وهران الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ص216.

*- بعثها الإبراهيمي رثاءً للمرحوم عبد الحميد بن باديس سنة 1941 وهو منفيّ بقرية آفلو من قبل السّلطات الفرنسيّة فاستعاض بهذه الرّسالة عن الذّهاب بعدما لم يفلح في إقناع السّلطات الاستعماريّة بذلك. انظر عبد المالك مرتاض: فنون النّثر الأدبي في الجزائر1931-1954، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983، ص310. بتصرّف.

ما لا حدّ له عند حدّ ! واستأثر بالفضل الغزر، و المساعي الغرّ والخلال الزّهر...»[1]. ويمضي الإبراهيمي في رسالته المشحونة بالعواطف الصّادقة إلى أن يقول:

«يا قبر ! ما أقدر الله أن يطوي علما ملأ الدّنيا في شبر !

يا قبر! ما عهدنا قبلك رمسا، وارى شمسا ! ولا مساحة، تكال بأصبع الرّاحة، ثم تلتهم فلكا دائرا، وتحبس كوكبا سائرا !. ..»[2].

فكما هو ظاهر الرّسالة مثقلة بمشاعر الحزن والأسى لفراق رفيق الحياة و الكفاح عبد الحميد بن باديس، وقد أبدع الإبراهيمي في تصويرها، فطاوعته اللّغة وانساقت وراء إحساسه الصّادق فجاء تعبير الرّسالة قوياً وتصويرها دقيقاً لكلّ ما يخالج الإبراهيمي وهو ينعي ويتذكّر فقيد المجتمع الجزائري.

والرّسالة ترصع بتلاحم السّجع والمحسّنات البديعية التي جاءت عفو الخاطر؛ فلم «يك الإبراهيمي يهدف إلى الإنشاء بهدف الإنشاء»[3]، وإنّما للتّعبير عن حرقته الكبيرة، و قد جنّد لذلك كلّ أدوات التّعبير المتاحة من أسلوب متين، ولغـــة

1- محمّد البشير الإبراهيمي: "مناجاة مبتورة لدواعي الضّرورة". البصائر، قسنطينة الجزائر، السّنة الثّانيّة، العدد76، جمادى الثّانية 1368هـــ/ 18 أبريل1949م، ص241.

2- المرجع نفسه، ص241.

3- محمد عبّاس: البشير الإبراهيمي أديبا، ص218.

رصينة، وخيال واسع، وعواطف حارّة.

و من هنا نلاحظ كيف أنّ رسالة الإبراهيمي تنطق بالتغيير والتطوّر الذي جاء مع بروز الحركة الإصلاحيّة في السّاحة الأدبيّة. بل إنّ الإبراهيمي وهو أحد قادة الحركة الإصلاحيّة في الجزائر تمكّن من أن يرقى بفن الرّسائل في الجزائر «إلى قمّة الفنون الجميلة، فمنحه أصالته العربيّة بما فيها من جمال وخيال وبيان، خلّصه من تلك الرّكاكة الفظيعة التي كانت تخيّم عليه»[1]، إذ لم يعد معه ومع غيره من روّاد الحركة الاصلاحيّة يرسف في التّكلّف و كثرة البديع من غير صدق في التّعبير و إنّما امتطاه بلغة طيّعة لا تكلّف يشوبها و إن زخرت بألوان من الخيال و البيان العربي.

1- عبد الملك مرتاض: فنون النّثر الأدبي في الجزائر1931-1954، ص314.

1- نبذة عن حياة ابن باديس

2- دوره الإصلاحي

3- نتاج ابن باديس النّثري

أ- الخطابة

ب- المقال

ج- فنّ الرّسائل عند ابن باديس

4- غياب الأنا في كتاباته

1- نبذة عن حياة ابن باديس:

بينما الجزائر تعيش في ظلام دامس، و الشّعب فيها يتجرّع مرارة الجهل، و تتلاطمه أمواج البدع و الخرفات، بزغ فجر «عبد الحميد بن محمد المصطفى بن المكّي بن باديس في ليلة الجمعة الرابع من شهر ديسمبر سنة 1889 ميلاديّة في مدينة قسنطينة بالشّرق الجزائري»[1]، من «أسرة قسنطينيّة مشهورة بالعلم والثّراء والجاه»[2].

وقد بدأ عبد الحميد بن باديس حياة التّعلّم على الطّريقة التّقليدية في الكتاب القرآني مثله مثل أيّ طفل جزائري و «هو في الخامسة من عمره سنة 1894م»[3]. وكان ذلك على يد الشّيخ المدّاسي، «و لم يلتحق بن باديس بالمدارس الفرنسية كغيره من أبناء العائلات الكبيرة في ذلك الوقت لأنّ والده فضّل أن يربيّه تربيّة إسلاميّة خالصة»[4]، فاختار له في حدود1903م «أحد الشّيوخ الصّالحين من ذوي

1- رابح تركي: الشّيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتّربيّة في الجزائر. الجزائر، المؤسّسة الوطنية للنّشر و التّوزيع، ط5، 1422هـ/2001م، ص153.

2- عمّار الطّالبي: ابن باديس حياته وآثاره. بيروت لبنان، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1403هـ/1983م، ج1، ص72.

3- عبد الكريم بوصفصاف: الفكر العربي الحديث و المعاصر(محمد عبده و عبد الحميد بن باديس) نموذجا. ج1، ص193.

4- رابح تركي: الشّيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتّربية في الجزائر، ص155.

المعارف الإسلاميّة والعربيّة وهو الشّيخ أحمد أبو حمدان الونّيسي* الذي كان يعلّمه مبادئ العربيّة والمعارف الإسلاميّة ويوجّهه وجهة علميّة أخلاقية»[1].

ثمّ توجّه سنة 1908م إلى تونس وسنّه إذ ذاك تسعة عشر عاما وانتسب إلى جامع الزّيتونة وعُرِفَ في دراسته بالجدّ والنّشاط، «فأخذ يتلقّى الثّقافة العربيّة الإسلاميّة عن جماعة من أكابر علماء الزّيتونة»[2]؛ حيث «درس الأدب العربي على الشّيخ الطّاهر بن عاشور، وتفسير القرآن على العالم الكبير محمد النّخلي، و التّاريخ العربي والإسلامي على الأستاذ البشير صفر»[3]، وغيرهم ممّن كان لهم الفضل في تعليمه بتونس.

*- حمدان الونّيسي: (ولد سنة 1330هـ/توفي سنة 1912م)، عالم من زعماء حركة القوميّة الإسلاميّة في الجزائر، و أستاذ عبد الحميد بن باديس، من أهل قسنطينة، درس بها، ثمّ هاجر إلى الدّيار المقدّسة بعد إعلان الدّستور العثماني سنة 1908م واستقرّ بالمدينة إلى أن مات. انظر عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص346.

1- عمّار الطّالبي: ابن باديس حياته وآثاره. ج1، ص74.

2- المرجع نفسه، ص75.

3- مولود عويمر: أعلام وقضايا في التّاريخ الإسلامي المعاصر. القبة القديمة الجزائر، دار الخلدونية، ط1، 1428هـ/2007م، ص91.

وتوّجت دراسة عبد الحميد بن باديس في جامع الزّيتونة بتونس–والتي دامت ثلاث سنوات– بحصوله على شهادة التّطويع بتفوق* 1910م–1911م، «ثمّ علّم فيه سنة واحدة على عادة المتخرّجين في ذلك الوقت قبل أن يعود إلى أرض الوطن»[1].

ولمّا أتمّ عبد الحميد دراسته عاد إلى قسنطينة مسقط رأسه سنة 1913م وهو يحمل في جعبته زاداً فكرياً يتوق إلى ملامسة تنظيراته على أرض الواقع «شرع على الفور يلقي دروساً في الجامع الكبير على رواده –من كتاب "الشّفاء"– للقاضي عيّاض، ولكنّ الدّسائس بدأت تحاك له من خصوم الإصلاح والتّجديد حتّى حيل بينه وبين التّدريس في الجامع المذكور»[2]؛ فعزم عبد الحميد بن باديس في السّنة نفسها السّفر إلى المشرق لأداء فريضة الحجّ وقد «مكث في المدينة المنوّرة ثلاثة

*– إذ كان ترتيبه الأوّل بين جميع الطّلبة النّاجحين، كما كان الطّالب الجزائري الوحيد الذي تخرّج من الزّيتونة في تلك الدّورة. انظر عبد الكريم بوصفصاف: جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّة وعلاقاتها بالحركات الجزائريّة الأخرى(دراسة تاريخيّة و أيديولوجيّة مقارنة). قسنطينة الجزائر، دار مداد، ط2، 2009، ص81.

1– المرجع نفسه، ص81.

2– رابح تركي: الشّيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتّربيّة في الجزائر، ص163.

أشهر ألقى فيها دروساً عديدة في مسجد رسول الإسلام (ص) والتقى فيها بعلماء ومفكرين من كافة أنحاء العالم الإسلامي»[1].

وأثناء مكوثه بالمدينة المنوّرة «تعرّف لأوّل مرّة في حياته على الشّيخ محمد البشير الإبراهيمي، كما التقى بأستاذه حمدان الونّيسي الذي كان قد هاجر إلى الحجاز مثله»[2] واقترح عليه الإقامة بها، لكنّ الشّيخ حسين أحمد الهندي- الذي كان يدرّس بالمسجد النّبوي- «مانع في ذلك وحثّه على العودة إلى الجزائر لكونها في حاجة ماسّة إلى مصلحين متنورين و علماء متضلعين في مختف العلوم الدّينيّة والدّنيويّة»[3].

عمل عبد الحميد بن باديس بنصيحة الشّيخ الهندي، وفي طريق عودته إلى الجزائر زار سوريا ولبنان ومصر، والتقى بعدد من علماء هذه البلدان، وعند رجوعه إلى مدينة قسنطينة باشر من جديد مهنة التّعليم.

1- المرجع السّابق، ص164.

2- المرجع نفسه، ص164.

3- عبد الكريم بوصفصاف: الفكر العربي الحديث و المعاصر(محمد عبده و عبد الحميد بن باديس) نموذجا، ص230.

2- دوره الإصلاحي:

عاد عبد الحميد بين باديس من رحلته إلى الحجاز و الشّام و مصر، و هو يحمل في جعبته مشروعا وضع لبناته مع رفيقه الأستاذ البشير الإبراهيمي يقضي هذا المشروع «بضبط خطّة إصلاحيّة متعدّدة الأوجه، تنطلق أساسا من التّعليم و التّثقيف ثمّ تتوسّع لتشمل مجالات أخرى و تعتمد وسائل أخرى كذلك»[1].

فركّز ابن باديس بادئ الأمر عنايته بأمور التّربية و التّعليم، فَانْكَبَّ هو بذاته على تعليم مبادئ اللّغة العربيّة و الدّين الإسلامي إلى طلبته بالجامع الأخضر الذي يعتبر النّواة الأولى لعمل الشّيخ الإصلاحي، ثمّ أنشأ «مكتبا للتّعليم الابتدائي و ذلك في مسجد سيدي بومعزة ثمّ انتقل إلى بناية الجمعيّة الخيريّة الإسلاميّة التي تأسّست سنة 1917م وفي سنة 1349هـ-1930م تطوّر مكتب الجماعة إلى مدرسة جمعيّة التّربية و التّعلم الإسلاميّة»[2].

و كان اهتمام ابن باديس البالغ بأمور التّربيّة و التّعليم من أجل تكوين جيل قادر على بعث نهضة شاملة و التي لا يمكن أن تقوم إلاّ بتكوين «الفرد الجزائري من النّاحية الفكريّة و النّفسية تكوينا عربيا إسلاميّا متينا من ناحيّة، ثمّ العمل على

1- عبد القادر فضيل، محمد الصّالح رمضان: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس. الجزائر، دار الأمّة، 1998، ص34.

2- عمّار الطّالبي: ابن باديس حياته و آثاره. ج1، ص114.

ربط كافة الجزائريين بشبكة واسعة النطاق من التّنظيمات الاجتماعيّة، و السياسية، و الوطنيّة للدّفاع عن كيان الوطن المهدّد بالخطر من ناحية أخرى»[1].

عزّز عبد الحميد بن باديس طموحه الإصلاحي و نشاطه الفكري بتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كانت فكرتها الأولى في بيت البشير الإبراهيمي سنة 1924م عندما أخبره «أنّه عزم العقد على تأسيس جمعية باسم (الإخاء العلمي) يكون مركزها العام بقسنطينة العاصمة العلميّة و تكون خاصة بعمالتها، تجمع شمل العلماء و الطّلبة، و توحّد جهودهم، وتقارب بين مناحيهم في التّعليم و التّفكير»[2].

تفطّن بعد ذلك ابن باديس إلى أنّ جهوده التّربويّة و التّعليميّة لن تكلّل بالنّجاح إلاّ إذا اتّصلت بالشّعب على نطاق أوسع «وأنّ الطّريقة المجديّة للخروج بالدّعوة من منطقة قسنطينة في شرق الجزائر و تعميمها على الجمهور الجزائري في كافة مناطقه هي الصّحافة»[3]، فأصدر سنة 1925م أوّل جريدة تحت اسم "المنتقد" وكان

1- رابح تركي: الشّيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي و التّربية في الجزائر، ص204.

2- نوار جدواني: سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. الجزائر، دار المعرفة، 2009، ص(41،42).

3- أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر. الجزائر، المؤسّسة الوطنية للكتاب، 1985، ص141.

شعارها "الحق فوق كلّ واحد، و الوطن قبل كلّ شيء"، وقد عمل فيها مع خيرة الأقلام العربيّة آنذاك مثل: مبارك الميلي، والطّيب العقبي، و محمد العيد، ومحمد الهادي السنوسي وغيرهم إلى الإصلاح الدّيني و محاربة الخرافات و البدع التي عششت في عقول الجزائريين وسلبت عقولهم، «ولكنّ لهجتها الحارة و حملتها الصّادقة ضدّ الخرافات و البدع أثارت حفيظة بعض الطّرقيين عليها و ساندهم في ذلك بعض رجال الدّين الرسميين فأخذوا يسعون بالوشاية لدى السلطات الفرنسية ضدّها حتّى عطّلت بأمر حكومي»[1].

وما إن عطّلت السّلطات الفرنسية جريدة المنتقد حتّى أصدر ابن باديس جريدة "الشّهاب" الأسبوعيّة في 12 نوفمبر1925م حاملة شعارات "المنتقد" نفسها إلاّ أنّه في هذه المرّة اعتمد المرونة في السياسة في تحرير مواضيعها، و هذا ما جعلها تصدر بانتظام دون تخلّف أو توقّف، حتّى أصدر الوالي العام قرارا بتعطيلها سنة1939م بعد قيام الحرب العالميّة الثانية.

و على الرّغم من العراقيل التي واجهت عمل عبد الحميد الصّحفي إلاّ أنّه تمكّن بجَرِيْدَتَيْه من أن يبني جسرا يتواصل بواسطته مع الشّعب، و يحقّق به تطلّعاته الإصلاحيّة في مجال التّربيّة و التّعليم و الدّين وحتى السّياسة، ومن بين

1- محمد ناصر: الصّحف العربيّة الجزائريّة من 1847م إلى 1954م. بيروت لبنان، دار الغرب الإسلامي، ط3، 1427هـ/2007م، ص97.

الرّسائل الإصلاحيّة ذات الطّابع الدّيني الرّسالة التي بعث بها إلى عموم المسلمين الجزائريين ليبث في أمر اختلافهم في الصّوم و الإفطار يقول في جزء منها:

«...ان مسألة الصوم و الافطار خرجت من عندنا من باب الاعتبار الديني إلى باب التعصب الشخصي أو الحزبي، و من آيات ذلك أن أصبحنا نرى في هذه الامة من يصوم لان فلانا مفطر، ومن يفطر لان فلانا صائم و من القبيح الشنيع أن نجعل الدين –الذي هو مناط وحدتنا ومقعد ارتباطنا– موضوع اختلافنا و دائرة تفرقنا وسبب تفكك رابطاتنا.

...أيها الاخوة الكرام ان جمعية العلماء التي ما أسست الا لخدمتكم و انارة الطريق أمامكم لتصلوا منها الى الحق في دينكم و دنياكم، تدعوكم إلى الحسنى و تناشدكم اللّه و أخوّة الاسلام أن تراجعوا بصائركم في هذه المسألة وتأخذوا فيها بالحزم الديني و لا تأخذوها من طريق الهوى، فليس للهوى على النفوس المؤمنة سلطان و لان تجتمعوا على الخطأ المغتفر خير من أن تختلفوا على الصواب الموهوم و استعينوا على قتل الخلاف، بالحرص على تعميم الرؤية ان ثبتت...»[1].

1– وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. الجزائر، 2007، ج6، ص(68–71). نقلا عن النّجاح العدد 1258، 7 رمضان1350هـ/ 16 أبريل1932م.

لنخلص في الأخير أنّ بن باديس زرع بدوره الإصلاحي الوعي، وبعث الثّقافة الإسلاميّة و العربيّة الأصيلة بكلّ مقوماتها .

3- نتاج ابن باديس النّثري:

إنّ الذي يقف على النّتاج النّثري الجزائري في فترة الاحتلال الفرنسي يجده أكثر وفرة وحضورا في السّاحة الأدبيّة، وذلك لطبيعة النّشاط الفكري و السّياسي و الاجتماعي آنذاك؛ إذ انتزع راية الرّيادة من الشّعر «فغدا الأداة الأكثر تعبيرا عن ظروف المجتمع وحاجاته، واتّسع صدره للإفصاح عن جملة من القضايا العامّة التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالوجدان الجماعي و تصوّر تصويراً صادقاً تطلعات الأمّة»[1].

و قد جال قلم عبد الحميد بن باديس في كثير من فنون النّثر و أغراضه، فساهم في الخاطبة والرّسائل، وأدب الرّحلة و التّراجم من الفنون النّثرية القديمة، والمقال والقصّة من الفنون النّثرية الحديثة، فكان «من بين أولئك الأعلام الرّواد

1- محمد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص24.

الذين تفتّقت قرائحهم على حذق صناعة النّثر»[1]، بعدما رسف كثيراً في أغلال الصّنعة والتّكلّف.

والمتتبّع لنتاج عبد الحميد بن باديس النّثري يجد أنّ فنّي الخطابة والمقالة يتربعان على القسط الوافر من كتاباته، لذلك سأتعرض لهما أوّلا، ثمّ سيأتي الحديث عن فن الرّسائل موضوع الدّراسة فيما بعد.

وقبل أن أتطرق لهذا وذاك، رأيت أن أضع صورة تبين لنا طريقة عبد الحميد بن باديس في الكتابة، سواء أكانت خطابة، مقالاً، أو رسالة أو درساً، من خلال إجابته عن سؤال لطلبته حولها قائلاً: «إنّ طريقتي في الكتابة كطريقتي في التّدريس فأنا أفكّر أولاً في الموضوع درساً كان أو مقالاً، حتّى إذا اجتمعت أطرافه و أشتاته، و كونت صورة واضحة له في ذهني لا تشتبك عليّ مسالكها الفنّيّة، إن كان درساً باللّغة التي تناسبه، أو شرعت في كتابته إن كان مقالاّ بالأسلوب نفسه أو اللّغة المناسبين، وكنت إذا تناولت القلم بعد هذا العمل الذهني انقادت لي المعاني وأتت طائعة كما رتّبتها في فكري، وجرى قلمي عرضها من غير أن يتوقّف أو يكّل...»[2].

1- المرجع السّابق، ص25.

2- باعزيز بن عمر: من ذكرياتي عن الإمامين الرئيسين عبد الحميد بن باديس و محمد البشير الإبراهيمي. الجزائر، منشورات الحبر، ط2، 2007، ص52.

الذي يتّضح من إجابة ابن باديس أنّه ينهل و يستقي نهج كتابته من الموروث العربي القديم الذي جرى على ما جاء به عبد القاهر الجرجاني، فعبد الحميد بن باديس يقرّ بعدم استجلاب اللّفظ واستدعاءه في كتاباته قصراً، وإنّما يأتيه طواعية لمعان رسمها في فكره مسبقاً، وهذا ما سيظهر جلياً في تتبّعنا لفنّ الخطابة، والمقالة، والرّسائل.

أ- **الخطـــابة:**

لقد كان لزاماً على عبد الحميد بن باديس وهو أحد قادة الكفاح الفكري و السّياسي أن يتقن أبجديات هذا الفن لأنّه السّبيل الأمثل للاتصال المباشر بالجماهير في شتّى أنحاء الوطن، وبثّ الفكرة الإصلاحيّة فيهم «فكان يخطب في العامّة والخاصّة، يخطب في العامّة أثناء رحلاته و تنقّلاته التي يقوم بها في مختلف أرجاء البلاد على مدار السّنة...وكان يخطب في الخاصّة في لقاءات جمعية التّربية والتّعليم، و في مؤتمرات جمعية العلماء واجتماعاتها الدّوريّة و السّنويّة»[1].

فجاءت خطبه تحمل أغراضا ذات صبغة دينيّة، اجتماعيّة، سياسيّة والجدير بالذّكر هنا أنّ هذه الأغراض قد تحفل بها خطبة واحدة تبعاً لمقتضيات الموضوع

1- محمد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص27.

المتطرّق إليه. وهي في طابعها العام تحمل «طابع الدّين والوعظ والتّركيز على فكرة الإحياء والرّجوع إلى الماضي و الدّعوة إلى النّهوض واليقظة»[1].

وهي من حيث البناء تقوم على ثلاثة أقسام: مقدّمة، موضوع، وخاتمة؛ أمّا المقدّمة فغالباً ما كانت تأتي مسجوعة، مخيّرة اللّفظ، وذلك لاستمالة المتلقين، قصيرة في معظمها يحتذي فيها خطب الرّسول صلى الله عليه وسلّم، وخطب الخلفاء الرّاشدين، و من ذلك فاتحة خطبته التي ارتجلها في الاجتماع العام بعد تجديد مكتب إدارة الجمعيّة:

«الحمد للّه معطي الفلج لباذلي المهج، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد اللّه الذي جاءنا بها حنيفية سمحة لا إصر فيها ولا حرج وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أصحابه فرسان الرهج، الذين أقاموا بالحق كل عوج، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين عدد من دب و درج ...»[2].

أمّا موضوعها فكان ذا صلة شديدة بالواقع، توخّى فيه ابن باديس مخاطبة العقل لا تهييج العواطف، وتوسّل «إلى ذلك بجملة من الأدلّة المنطقية والبراهين

1- عبد اللّه الركيبي: تطور النّثر الجزائري الحديث1830-1974، ص24.

2- عبد الحميد بن باديس: "خطبة رئيس الجمعية التي ارتجلها في الاجتماع العام بعد تجديد مكتب الإدارة". قسنطينة الجزائر، مجلّة الشّهاب، ج8، مج12، شعبان 1355هـ/ نوفمبر1936م، ص(359-361).

الإيمانية والأدوات التّقريرية»[1]؛ وهذا يعود إلى أنّ عبد الحميد يركّز على توضيح المعنى والقصد في القول لا على زخرف اللّفظ ورتابة الإيقاع، إذ أنّه «من خطباء المعاني لا الألفاظ»[2]، وهذا ما ساعده على استقطاب وتعبئة الجماهير وإيقاظ عقولها.

ولأنّ غاية ابن باديس كانت توصيل الأفكار، جاء أسلوبه في خطبه واضح التّعبير، كثير التّفصيل، سلس المعاني قوي التّأثير، فبدت معظمها محرّرة من «مظاهر الصّنعة البديعيّة والزّخرف اللّفظي»[3]، إلاّ ما جاء عفو الخاطر، أو ما تقصده عبد الحميد في مقدّمات خطبه كما ذكرنا سالفاً، أو ما تعمّده من وقفات فنيّة في صلب موضوع بعض خطبه لاستمالة أذن السّامعين لها واجتذاب عقولهم لتدبّر معانيها و ذلك لتقرير المعنى في الأذهان و توضيحه لا «رغبة منه في إظهار القدرة البلاغيّة و البراعة اللّفظيّة»[4]، ومن هذه الخطب ذات المسحة الفنيّة خطابه الذي ألقاه في عرض حالة الجمعيّة الأدبيّة و الذي يقول في جزء منه:

1- محمد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص32.

2- عبد اللّه الركيبي: تطور النّثر الجزائري الحديث1830-1974، ص28.

3- محمد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص33.

4- المرجع نفسه، ص34.

«...حوربت فيكم العروبة حتى ظن ان قد مات منكم عرقها، ومسخ فيكم نطقها، فجئتم بعد قرن تصدح بلابلكم باشعارها فتثير الشعور و المشاعر وتهدر خطباؤكم بشقاشقها فتدك الحصون والمعاقل ويهز كتابكم أقلامها فتصيب الكلا و المفاصل»[1].

كما هو ظاهر الفقرة تفيض بالتّصوير الفني و الخيال الحسي و الألفاظ الموحيّة بمعناها لا بانسجام حروفها و تناغم بعضها البعض؛ ذلك أنّ اللّغة عنده ليست هدفا و إنّما أداة ووسيلة لإيصال أفكاره و إفهامها.

و ما يمكن أيضا أن نلمحه في هذه الخطبة قدرة ابن باديس على صبر أغوار واقع الجزائريين وملامسة دائه و الوقوف على دوائه؛ ففي كلّ مرّة كان ابن باديس يذكّر فيها الجزائريين، بما يعيشونه من اضطهاد في عروبتهم أو إسلامهم أو علمهم أو فضيلتهم إلاّ و ذكر لهم سرّ التّخلص منه و سبل دحضه، كما جاء في باقي الخطبة.

وهذه الواقعيّة في تناول خطبه جعلته يجنح إلى الموضوعيّة في عرض أفكاره و ينشدها منهجا وهدفا في معالجة موضوعاته علـــى اختلاف أغراضـــها،

1- عبد الحميد بن باديس: "خطاب الرّئيس الأستاذ عبد الحميد بن باديس". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، ج8، مج13، شعبان1356هـــ/ أكتوبر1937م، ص(357-361).

وهي ميزة طبعت نتاجه الخطابي بل مجمل نتاجه النّثري.

ويمكن- لو جاز لنا- أن نقيس موضوعيّة خطبه باستشهاده الكثير بالقرآن الكريم والحديث الشّريف و الشّعر و الأمثال العربيّة؛ إذ لم يكن يدافع عن مسلّماته الفكريّة بقناعات ذاتيّة و تصوّرات خياليّة بعيدة عن الواقع، و إنّما من حجج منطقيّة وبراهين ثابتة لا مجال لتفنيدها أو الشّك في مصداقيتها، ومن ذلك وصفه لبعض من انشق عن الجمعيّة و ناصبها العداء بعدما عرفوا أنّها تحارب كثيرا من الآفات الاجتماعية التي هم مصدرها لأنّهم كانوا ذو خلفيّة طرقيّة؛ إذ يقول واصفا إيّاهم في الخطاب الذي ألقاه في الاجتماع العام بمركز الجمعيّة بنادي التّرقي بالعاصمة:

«وكانوا و الجمعية كما قال كثير:

وكنا سلكنا في صعود من الهوى فلما توافينا ثبت و زلـــــت

وكنا عقدنا عقدة الوصـــل بينـــنا فلـــما تواثقنا شددت و حلـــت

﴿...فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ، وَ مَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيْهِ اللّهُ أَجْرا عَظِيْمَا﴾[1]»[2].

1- سورة الفتح، الآية 10.

2- عبد الحميد بن باديس: "خطاب رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي ألقاه في الاجتماع العام بمركز الجمعية بنادي التّرقي بالعاصمة". قسنطينة الجزائر، مجلّة الشّهاب، ج8، مج12، شعبان1355هـ/ نوفمبر1936، ص(352-358).

أمّا الخاتمة في خطبه فكانت تأتي قصيرة ذات طابع ديني محتذياً في ذلك النّموذج الخطابي التراثي «حتّى لتكاد تقتصر على معاني الدّعاء بالخير والصّلاح والتّقدّم لعامة المسلمين وللإنسانية جمعاء»[1]، ومن أمثلتها قوله في خاتمة الخطبة التي ارتجلها في الاجتماع العام بعد تجديد مكتب إدارة الجمعية:

«...هذه مواقف جمعيتكم-ايها الاخوان- عرضتها عليكم في ايضاح وايجاز، واللّه اسأل أن يثبت اقدامنا في مواقف الحق كلها في الدنيا وفي مواطن السؤال و الجزاء في الاخرى. ﴿يَومَ تَأتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَّفْسِهَا وَ تُوفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُم لاَ يُظْلَمُونَ﴾[2]. آمين يا رب العالمين»[3].

و بما أنّ عبد الحميد بن باديس كان كثير التّرحال والمهام فقد كان يرتجل الكلام في معظم خطبه «لكن وهو يرتجل يختصر الكلام أمّا حين يكتب يطيل ويفصّل ولا يوجز»[4]، وفي كلا الموقفين أبان عن مقدرة خطابية شهد له بها العدوّ

1- محمد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبية في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص31.

2- سورة النّحل، الآية 111.

2- عبد الحميد بن باديس: "خطاب الرّئيس الأستاذ عبد الحميد بن باديس". مجلّة الشّهاب، ص(357-361).

4- عبد اللّه الركيبي: تطور النّثر الجزائري الحديث1830-1974، ص25.

قبل الصّديق حيث اعترفت جريدة le petit matin* بهذه الموهبة الخطابية التي تتمتّع بالقدرة على التأثير والإقناع قائلة: «...و الشيخ ابن باديس يمثل حقا الزعيم الخطيب، فهو قد ملك مقاليد الكلام و بصوته الناري يستفز الجماهير، فيثير الحروب او ينزل في القلوب سكينة السلام... لقد يستطيع ان يفعل ما يريد في الجموع التي كانت بالامس تستمع الى خطابه كان يستطيع ان يجعل منها سرابا من من الطيور الكاسرة، او قطيعا من الخرفان، و هذا ما نستطيع ان نصف به هذا الرجل الخارق للعادة»[1].

كما شهد قراء الفرنسيّة من الجزائريين الذين كانوا يهرعون لسماع خطبه على الرّغم من ضعفهم في اللّغة العربيّة بمقدرته الخطابيّة وتأثّرهم بها حيث قالوا: «إنّه يؤثّر فينا بعربيّته أكثر ممّا يؤثّر فينا غيره بفرنسيته، لأنّه يملك من وسائل التّعبير عن الشّعور الجزائري العام ما لا يملكه غيره، فشخصيته وإشاراته،

*- هي جريدة فرنسية كانت تصدر في تونس، وقد أوردت هذا الوصف لموهبة الشّيخ الخطابية في عددها الصادر بتاريخ19 ماي 1939، بمناسبة خطاب ألقاه في الذّكرى العشرين لوفاة الأستاذ "البشير صفر". انظر رابح تركي: الشّيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي و التّربيّة في الجزائر، ص180.

1- عبد الحميد بن باديس: "وقالت البتي ماتان". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، ج5، مج13، جمادى الأولى1356هـ/ 10 جويلية1937م، ص(228-230).

ووضوح ما يدعو إليه و إخلاصه للمبدأ الذي يعمل له كلّها تعبر عن رأيه تعبيراً لا يقلّ عن فصاحة لسانه و سحر بيانه»[1].

ب- المقال:

تفطّن عبد الحميد بن باديس كغيره من مفكري و مناضلي عصره لما للصّحافة من أثر في يقظة الشّعوب و بثّ الوعي الدّيني و الاجتماعي و السّياسي فيها فأنشأ جريدة "المنتقد" سنة 1925م والتي أراد باسمها القضاء على الشّعار القائل "اعتقد ولا تنتقد" و بدّله بشعار "لا تعتقد حتّى تنتقد"، و لمّا عطّلت هذه الجريدة من قبل السّلطات الاستعمارية بعد صدور 18 عدداً لها أخلفها بجريدة الشّهاب (1925-1939) الأسبوعيّة واقتفى فيها «آثار سابقاتها مبادئاً وأفكاراً، ومضموناً و شكلاً»[2]، وحمّلها شعارات المنتقد نفسها.

ولأنّ عبد الحميد بن باديس كان يعمل على عدّة جبهات للتّواصل مع الجماهير و توعيتهم للرّد على المستعمر و مخطّطاته، كانت مقالاته عبر صفحات جريدتيه واحدة من هذه الجبهات التي كثيراً ما أثلجت صدور الجزائريين بجرأتها في الذود عن حقوقهم المهضومة وحريّتهم المسلوبة، وكثيراً كذلك ما أوجعت العدو

1- باعزيز بن عمر: من ذكرياتي عن الإمامين الرّئيسين عبد الحميد بن باديس ومحمّد البشير الإبراهيمي، ص57.

2- محمد ناصر: الصّحف العربيّة الجزائريّة من 1847-1954، ص101.

الفرنسي بنقد سياساته وفضحها في الدّاخل والخارج.

وبذلك احتلّت المقالة عند ابن باديس حيّزاً واسعاً من اهتمامه فأجاد في كتابتها موضوعاً، وأسلوباً، وبناءً، بل إن فنّ المقالة عرف على يده رفقة أقرانه من رجال الفكر الإصلاحي «نقلة ملحوظة في نوعيّة الموضوعات وفي طرق التّناول و في وجوه الصّياغة»[1].

وبما أنّ الجزائريين كانوا يعيشون تهتّكاً و تصدّعاً في مختلف مجالات الحياة عالج عبد الحميد بن باديس قضاياها في مقالاته؛ فتنوّعت موضوعاتها من علميّة دينيّة، وإصلاحيّة، واجتماعيّة، وسياسيّة، حتّى أضحت لسان الأمة النّاطق بواقعها و المعبّر عن تطلّعاتها، وهذا جزء من مقال ذو صّبغة اجتماعية يعبّر فيه ابن باديس عن رغبة الجزائيين في التّعلّم تحت عنوان "في سبيل التعلم والتقدم" يقول الإمام:

«ما من شك في ان الشعب الجزائري شعر بسوء الحالة التي وصل ليها في جميع نواحيه. وما من شك في انه قد آلمه ما شعر به فأخذ يعمل للتخلص من تعاسته و النهوض من كبوته بكل ما يستطيع.

1- محمد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث في الجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص75.

الشعب الجزائري شعب مسلم طبعه الاسلام على تعظيم العلم، وحب التعلم، واحترام المتعلمين، فلما دبت فيه الحياة و هب للنهوض اندفع للتعلم اندفاعاً أدهش قوماً و حير آخرين...»[1].

هذا الجزء من هذا المقال يعكس إحساس عبد الحميد بواقع الجزائريين و تطلّعه لتلاشي الظّلام الذي يخيّم عليهم، وهو الإحساس العام الذي نجده في جميع مقالاته على اختلاف أنواعها، ممّا جعل الشّغل الشّاغل له وهو يدبّج ما يدبّج من مقالات إيصال أفكاره و تصوّراته بأوضح بيان، و أبسط صورة.

ولأنّ المقالة الباديسية يغلب عليها الطّبع الذهني والرّوح الإصلاحيّة تميّزت بأسلوب صريح «مباشر و قوي و قصير الجمل ومركّز و مفحم للخصم، وطافح بالسّخرية اللاّذعة خصوصاً عندما يكون الأمر متعلقاً بمناقشة المتهجمين على الشّخصية القوميّة سواء كانوا جزائريين أو أجانب»[2]، وهذا ما نجده في مقاله "كلمة صريحة" الذي ردّ فيه على فرحات عباس بعدما أنكر وجود القوميّة الجزائريّة في التّاريخ حيث يقول:

1- عمّار الطّالبي: ابن باديس حياته وآثاره. ج3، ص255. نقلا عن البصائر، السنة الثالثة، العدد 136، قسنطينة، الجمعة 27 شعبان 1357هـ/ 21 أكتوبر 1938م، ص(1،2).

2- تركي رابح: الشّيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي و التّربية في الجزائر، ص185.

«حقا اننا نعيش في وسط سادت الفوضى فيه من جميع جهاته فمن فوضى في الدين الى فوضى في الاخلاق، الى فوضى في الاقتصاد، وزادتنا الايام على ذلك فوضى جديدة ربما كانت اخطر الفوضات واشدها تأثيرا على حياة الامة وهي فوضى التكلم باسم الامة.

فما من متكلم في اي مناسبة من المناسبات الا ورفع عقيرته مدعيا بانه انما يمثل الامة الاسلامية قاطبة في هذه البلاد وان الكلمات التي يقولها من عنـــد نفسه انما هي كلمة الحق و قولها الفصل، ولو انهم اقتصدوا في القول ولم يلجوا باب الغلو والاسراف وقالوا اننا نتكلم باسم الفريق الذي انتخبنا، أو باسم الهيئة التي ننتمي اليها، او باسم الجماعة التي نحن منها، او باسم الذين يشاركوننا في الرأي و التفكير، لكان قولهم اصوب، ورأيهم اصلح، وكلامهم اقرب الى نفوس السامعين من رجال الحكومة ومن رجال الشعب»[1].

إنّ جانب النّقد اللاذع والجرأة لظاهر بأسلوب صريح في الردّ على دعاة الاندماج و التّجنيس في هذه المقالة التي تعبّر عن نهج عبد الحميد في الدّفاع عن كلّ ما يمسّ الجزائريين والجزائر.

1- عبد الحميد بن باديس: "كلمة صريحة". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، ج1، مج12، غرّة محرّم1355هـــ/ 1936م، ص(42-50).

وحتّى تصل أفكار ابن باديس بأسلوب مباشر و واضح اهتمّ «باللّغة من حيث مفرداتها وأيضاً من حيث أصالتها و قدرتها على تبليغ الأفكار بل و العناية ببعض خصائص الأساليب العربيّة و البيان العربي دون اهتمام كبير بجمال التّعبير وصياغته صياغة يقصد من ورائها اللّذة الأدبية»[1]، وهذه العناية غالبة في مقالات الفكر الإصلاحي على العموم؛ فالجانب الفني الأدبي يقع في الدّرجة الثّانية، ولغة المقالتين السّابقتين خير شاهد على ذلك.

والمتتبّع لمقالات عبد الحميد بن باديس على اختلاف أنواعها و موضوعاتها يلحظ التزامه بالخطّة التي تسير عليها كتابة المقالة من مقدّمة وعرض و خاتمة؛ بحيث نجد كل عنصر من عناصر الخطّة واضح المعالم فجاءت مقالاته على «أعلى درجة من التّماسك والتّرابط بين أجزائها»[2].

ج- فنّ الرّسائل عند ابن باديس:

إنّ الذي يلفتك و أنت تقلّب نتاج ابن باديس من الرّسائل هو تنوّع أشكال التّرسّل عنده، وهذا بحسب المقام الذي كان يريد الحديث فيه؛ فكانت مراسلاته تأتي تارة في صيغة النّداء، وأحياناً تأخذ طابع البيان والمنشور وأحياناً أخرى ينشرها

1- عبد اللّه الركيبي: تطوّر النّثر الجزائري الحديث1830-1974، ص137.

2- محمد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبية في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص85.

على شكل برقيات أو تلغرافات أو احتجاجات، فعلى سبيل المثال لا الحصر نعرض عناوين بعض ما نشره على صفحات الشّهاب: «منشور المقاطعة نداء إلى سكان قسنطينة المسلمين»[1]، «دعوة و بيان إلى عموم الشّعب المسلم الجزائري الكريم»[2]، «برقية جمعيّة العلماء إلى المؤتمر البرلماني من أجل فلسطين»[3]، احتجاج على «لاندجينا الجديدة»[4]، «تلغراف مرسل إلى السّيّد الوالي العام»[5].

هذا التّنوع في طرق بثّ ابن باديس لرسائله خدمه كثيراً في توعيّة الشعب الجزائري من خلال النداءات و المناشير والبيانات الموجّهة له، ومن جهة أخرى أفاده في الدّفاع عن حقوق الجزائريين و المطالبة بها في شكل اعتراضات و احتجاجات و نشر بيانات. وهو تنوّع اتّسم بالطّابع العام؛ ذلك أنّ مكاتباته كانت

1- عبد الحميد بن باديس: "منشور المقاطعة نداء إلى سكان قسنطينة المسلمين". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، ج9، مج13، رمضان1356هـ/ نوفمبر1937م، ص(427-429).

2- عمّار الطّالبي: ابن باديس حياته و آثاره. ج3، ص359 . نقلا عن البصائر، السّنة الثّانيّة، العدد79، 2 جمادى الثّانيّة 1356هـ/ 20 أوت1937م.

3- المرجع السّابق، ص459. نقلا عن البصائر، السّنة الثّالثة، عدد135، قسنطينة الجزائر، الجمعة 20 شعبان1357هـ/ 14 أكتوبر1938م، ص7.

4- وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. ج6، ص210. نقلا عن البصائر، العدد115، 27 ربيع الأوّل1357هـ/ 27 ماي1938م.

5- عمّار الطّالبي: ابن باديس حياته و آثاره. ج3، ص434. نقلا عن الشّهاب، ج9، مج10، غرّة جمادى الأولى1335هـ/ 12 أوت1943م، ص36.

تربطه في معظمها بالأمّة الجزائرية و نذر من زعمائها وبعض الهيئات الوطنيّة و الخارجيّة، وكذلك مثّلت جسرا للتّواصل مع السّلطات الاستعمارية، وهي مكاتبات -كما قلنا- «غلبت عليها الصّبغة العامة وسيطرت الموضوعية عليها بوجه واضح»[1].

والمتصفح لزاد ابن باديس من فن الرّسائل سيصادف حقيقة «أنّ نتاجه يكاد يخلو ممّا يعرف بالرّسائل الشّخصية»[2]؛ ومردّ ذلك عند من تناول ابن باديس و نتاجه النّثري بالدّراسة إلى ضياع بعض رسائله، أو عزوفه الإفصاح عن الجانب الخاص من حياته، ويعزو بعض الدّارسين ذلك إلى «أنّ الرّسائل الخاصّة لم تنشر في الصّحف أو المجلاّت، فظلّت مطمورة في المكتبات الخاصّة»[3]، والأكيد هنا أنّ التّرسل ذو الطّابع العام شغل حيزاً واسعاً من اهتمام ابن باديس. ويمكن أن نصنّف مراسلاته* كالآتي:

1- رسائل موجّهة للأمّة: وتدخل ضمنها:

أ- الرّسائل الموجّهة إلى عموم الجماهير الجزائرية.

1- عبد المالك مرتاض: فنون النّثر الأدبي بالجزائر1931-1954، ص307.

2- محمد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص36.

3- عبد المالك مرتاض: فنون النّثر الأدبي بالجزائر1931-1954، ص307.

*- محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص(36-38).

ب- الرّسائل الموجّهة إلى بعض علماء الإصلاح، وإلى بعض طلبته، وإلى بعض الزّعماء السياسيين، وبعض الهيئات داخل الجزائر و خارجها.

2- رسائل بعثها إلى السّلطات الاستعمارية وتتضمّن:

أ- الرّسائل التي بعثها إلى الحكومة الفرنسيّة في الجزائر.

ب- الرّسائل التي وجّهها إلى الإدارة الفرنسيّة في باريس.

ت- الرّسائل التي أرسلها إلى الصّحف الأجنبية.

وقد تناول ابن باديس في رسائله الموجّهة إلى عموم الجماهير الجزائريّة قضايا عامة تصبّ في عمق واقع الجزائريين وتطرح انشغالاتهم ملتزما في ذلك الوضوح و الدّخول مباشرة في عرض الموضوع المراد التّحدّث فيه، دون أي تزويق أو تنميق في العبارات، فالمهم هنا وهو يتوجّه إلى شريحة واسعة من الشّعب الجزائري وهي الشّريحة غير المتعلّمة أن تصل الفكرة بيسر و بساطة تامة حتّى تكون في متناول وعيهم و ثقافتهم، ونقف هنا عند النّداء الذي وجّهه إلى سكّان قسنطينة لمقاطعة الاحتفالات بالذّكرى المئويّة لاحتلال مدينة قسنطينة يقول فيه:

«اخواني القسنطينيين !

في هذه الايام، منذ قرن، مات اجدادكم المجاهدون المدافعون و الفرنسيون المهاجمون في ميدان البطولة و الشرف، وطويت صفحة من التاريخ على شهادته بالشجاعة و التضحية للغالب و المغلوب.

و مضت مائة سنة كانت كافية لنسيان تلك المأساة، وضمد تلك الجروح، وتقريب السكان المتجاورين بعضهم من بعض.

لكن قوما من الأنانيين الذين يأبون الا أن يكونوا سادة متفوّقين، و الا ان يشعروا المسلمين بسلطة الغالبين على المغلوبين، –هؤلاء القوم–وليسوا كل الفرنسيين– أرادوا في هذه الايام ان يقيموا احتفالات عسكرية بدخلة قسنطينة، تثير العواطف، و تمس كرامة الأحياء منا والاموات، و تنافي مبادي الاخوة و الرحمة التي ندعو اليها.

يحتفلون احتفالاتهم هذه و مطالب الشعب الجزائري بعرقلتهم معطلة، و حقوقه بسعيهم مهملة، وسوط القوانين الاستثنائية نازل بيدهم على ظهره في كل يوم.

لهذا قد اجتمعت 14 جمعية اسلامية من جمعيات قسنطينية يوم السبت 18 سبتمبر الماضي في نادي الاتحاد و كانت كلها مستنكرة لهذه الاحتفالات عازمة على مقاطعتها، فقررت –بالإجماع– مايلي: نحن–الممثلين لجمعياتنا– نرى احتراما لانفسنا و احتراما لاجدادنا، واحتراما للانسانية:

أولا– ان لا نشارك في هذه الاحتفالات و لا نحضرها.

ثانيا– ان نكون في هدوء تام عام.

إخواني القسنطينيين!

قد فعل المؤتمر الاسلامي الجزائري واجبه فاحتج على هذه الاحتفالات في اجتماعه العام الاخير، وقدم مكتبه ذلك الاحتجاج إلى الوالي العام، و قدمه مكتب لجنته القسنطينية إلى مير قسنطينة. وفعلت الجمعيات الاسلامية القسنطينية واجبها بما قررته في قرارها المتقدم. واخوكم هذا –كقسنطيني– فعل واجبه بنشر هذا المنشور عليكم. فما بقي إلا ان تقوموا انتم بواجبكم.

فقاطعوا هذه الاحتفالات و لا تشاركوا فيها.

كونوا في هدو و سلام.

والسّلام عليكم من اخيكم: عبد الحميد بن باديس.

حرر بالمنصورة حوز تلمسان مساء الثلاثاء 23 رجب

1356هـ_1937/09/28م»[1]

فالبيان كما هو ظاهر ينطق بغصّة ابن باديس اتجاه ما حاولت السلطات الاستعمارية تذويقه لسكّان قسنطينة من إذلال و إهانة، لكنّه استطاع بفضل نشر هذا البيان امتصاص غضب القسنطينيين و تهدئتهم وعدم تمكين المحتفلين الفرنسيين من استفزازهم.

إنّ إحساس عبد الحميد بن باديس و تعبيره الصّادق عن جراح القسنطينيين و محاولة تضميدها أكسبت بيانه تعاطفا جماهيريا كبيرا إلى درجة استجابتهم لمقاطعة الاحتفالات، و لم يتوسّل في ذلك إلى دغدغة عواطفهم و إنّما خاطب عقولهم؛ فليس من المنطقي أن يستشهد الأجداد في حين يشارك أحفادهم مع قتلتهم في احتفالات أراد بها الفرنسيون تذكيرهم بقصّة الغالب و المغلوب.

وعلى غرار معظم بيانات ابن باديس جاء هذا البيان صريح، مباشر التزم في عرض أفكاره بالبساطة و الوضوح لغة و أسلوبا، فهو لا يحمل عبارات يمكن أن تشكّل استفهاما أو تطرح تساؤلا للمتلقي، فكل ما جاء فيه هو تحصيل حاصل لكن الجديد فيه هو طريقة عرضه.

1- عبد الحميد بن باديس: "منشور المقاطعة نداء إلى سكان قسنطينة المسلمين". مجلّة الشّهاب، ص(427-429).

وقد اتسمت مكاتباته أو بياناته الموجّهة إلى جماهير الأمّة أو بعض هيئاتها أكثر من أي شكل آخر «بشيء من سعة الصّدر و طول النّفس نسبيا»[1]؛ على اعتبار أنّه يخاطب شريحة تستحقّ شرحا وافيا لاستدراك قلة وعيها.

إنّ سمة الوضوح و القصد و الدّخول مباشرة في الموضوع سمة طاغية على نتاج ابن باديس من فنّ الرّسائل، فحتّى الرّسائل الموجّهة إلى بعض الشّخصيات الجزائرية و العربيّة، و بعض الهيئات داخل الوطن وخارجه التي تستوجب نوعا من التّخيّر لأفضل العبارات، و انتقاء لأجمل الصّور التّعبيريّة غلب عليها هذا التّوجه و من ذلك كتابه المفتوح إلى النّواب الجزائريين الأحرار بالعمالات الثلاث الذي يقول في جزء منه:

«السلام عليكم و رحمة الله و بركاته،

وبعد؛ فلا يخفى عليكم أن منزلتكم من الامة منزلة الركيل المؤتمن، وان بينكم و بين الامة التي أولتكم شرف النيابة عنها و ملكتم حق التكلم باسمها. عقدا يلزمكم بواجبات و حقوق للامة لا يخرجكم من عهدتها الا القيام على تحقيقها بالمحافظة على الموجود و السعي في تحصيل المفقود.

1- محمد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص 41.

و لا يخفى عليكم أيضا ان أعلى و أغلى ما افرغت الامة ثقتها عليكم لاجله وجمعت ثقتها المتفرقة فيكم للمحافظة عليه و هو دينها و لغتها و انها قد تغفر لكم التقصير في كل شيء و تقبل منكم الاعتذار عن كل شيء الا فيما يتعلق بدينها و لغتها. و قد كانت للحكومة الفرنسوية سوابق عهود قانونية مسجلة مؤكدة بالشرف الفرنساوي في المحافظة لهذه الامة على دينها و لغتها و لكنها في هذه السنوات الأخيرة سلكت مع الدين و لغته سياسة تناقض تلك العهود و المواثيق و ترمي في غايتها إلى محو الدين و لغته.

و قد كانت الامة الجزائرية تشكو من الظلم و الغبن و مازالت تعلق عليكم الآمال في إزالة ذلك الظلم أو تخفيفه، فما راعها الا هذا الظلم الجديد و الغبن العظيم في التعليم الديني العربي الذي هو أعز عليها من أرواحها و في المدارس التي شادتها بجهودها و أنفقت عليها من أموالها...»[1].

لقد كان بإمكان عبد الحميد و هو يتوسّم من النوّاب الجزائريين الأحرار الدفاع عن دين الجزائريين و لغتهم أن يمعن في مقدمة رسالته بالإشادة بأفضالهم و يسترسل في عرضها بذكر مجهوداتهم، وبذل المزيد منها لتحقيق ذلك، حاشدا في

1- وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. ج6، ص197. نقلا عن البصائر، العدد110، السّنة الثّالثة، 21 صفر1357هـ/ 22 أبريل1958م.

كلّ هذا ألوانا من البديع، عامدا إلى كثير من الزخرف اللفظي، حتى يستدرجهم و يحثهم على تحقيق المطالب و نيل كثير من جزيل الشكر و الامتنان.

لكنّ ابن باديس لم ينصرف إلى كلّ هذا بل نجده في كلّ أقسام الرسالة مصرا على تذكيرهم بواجبهم اتجاه عهد نالوا شرف الدّفاع عنه نيابة عن الأمّة الجزائريّة و هو دين الجزائريين و لغتهم سالكا في ذلك أسلوب الترغيب و الترهيب لا التملّق و التنميق، حتّى يكون في ذلك مقنعا من جهة، و يزرع في داخلهم الإحساس بالمسؤوليّة و الاستماتة في استرجاع المفقود من حقوق الجزائريين من جهة أخرى.

وكما هو ظاهر لم يَحْتَجْ عبد الحميد بن باديس في إيصال رسالته بهذه القوّة و هذه الصّور التّعبيريّة المقنعة إلاّ على إحساس صادق بهموم الجزائريين، و أسلوب صريح وواضح في طرح انشغالاتهم على النوّاب، و عبارات مشحونة بحسّ المسؤوليّة كقوله: (منزلة الرّكيل المؤتمن)، (المحافظة على الموجود)، (السعيّ في تحصيل المفقود)، (تغفر لكم التّقصير في كل ّشيء)، (تقبل منكم الاعتذار عن كلّ شيء)، فلا مجال للّعب على أوتار المشاعر في قرارات عبد الحميد و دغدغتها و الأمر يتعلق بدين الجزائر و لغتها فهما مُلْزِمَانِ لكلّ من ينتسب لهذا الوطن.

و يظهر هذا الأسلوب المباشر الصريح في برقياته و احتجاجاته الموجّهة للإدارة الاستعماريّة، فهو لا يراوغ، في طرح حقوق الجزائريين و المطالبة بها و لا يلمح في ذكر و استنكار انتهاكات السلطات الفرنسيّة، و على سبيل المثال برقيّة الشكوى و الاستنكار التي وجّهها إلى رئيس الوزارة الفرنسية م .دالادى بباريس بعد التّضييق على تعليم الإسلام و لغته نتيجة إصدار قانون 8 مارس* و التي يقول فيها:

«رئيس الوزارة الفرنسيّة م .دالادى .باريس

يا جناب الوزير،

الى اليوم، و في هذه الظروف ما يزال التضييق متواليا و متزايدا على التعليم الإسلامي.

فالمساجد محجرة، و كثير من المدارس معطلة، و كثير من الكتاتيب القرآنية مغلقة، و كثير مـــن المعلمـــين متابعون فـــي المحاكم و مئات الآلاف مـــن أبنائنا

*- يعرف هذا القرار بقرار شوطان chautemps نسبة إلى وزير الدّاخليّة الفرنسي الذي أصدره، وقد نصّ على إغلاق المدارس العربيّة الحرّة التي لا تتمتّع برخصة عمل، ومنع كل معلّم من مزاولة التّعليم في المدارس المرخّصة إلاّ بعد الحصول على رخصة التّعليم من السلطات المسؤولة، وأخطر ما في هذا القرار اعتباره اللّغة العربيّة لغة أجنبيّة في الجزائر. انظر أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر، ص204.

مشردون في الشوارع.

يمتثل الشيوخ للقانون فيطلبون رخص التّعليم و يقدمون جميع اللوازم، فلا يسمع لهم صوت. بل كثيرا ما نزعت الرخص من أيد أصحابها.

كل هذا من آثار قانون 8 مارس المطبق على التعليم الاسلامي تطبيقا جائرا مغرضا، بمنع الرخص عن أهلها وينزعها منهم بينما التعليم الاجنبي – و الاجنبي المعادي– يتمتع بكل حرية و احترام.

يا جناب الوزير:

انني في هذا اليوم يوم 8 مارس الذي هو أسوأ الايام في تاريخ الاسلام بالجزائر–أرفع إليكم باسم الإسلام كلمة الاستنكار التام لهذه الحال، وأقدم إليكم باسم المسلمين مر الشكوى من هذه المعاملة الخاصة التي تركت في القلوب أسوأ الآثار وأوجع الآلام.

راجيا منكم أن تتداركوا الأمر بما عرف عنكم من حكمة وبعد نظر ووزن للاحوال. لكم باحترام

رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين

عبد الحميد بن باديس»[1]

لم يتوان ابن باديس في سرد انتهاكات السلطات الفرنسيّة بصراحة وذكر آثار تطبيقها هذا القانون على الجزائريين في إيجاز غير مخل بما يريد توضيحه، وهي ميزة طبعت برقياته الموجّهة للإدارة الفرنسيّة، وقد أمدّته صراحته الجرأة ليصف تطبيقات فرنسا بالجائرة والمغرضة بل وينعت الفرد الفرنسي بالأجنبي المعادي، وقد تمكّن بلغته هذه أن يصيب مَكْمَنَ التّعبير بألفاظه السّهلة و عباراته المفعمة بإحساسه الصادق لما تعرّض له الإسلام ولغته.

وما يلاحظ عموما في رسائله على تنوّع أشكالها و اختلاف متلقيها اقتضاب مقدمتها؛ فعبد الحميد كما ذكرنا سالفا يدخل مباشرة في عرض موضوعه دون حاجة إلى تمهيد يسهّل عليه الخوض فيه، فقد كان يميل في موضوع رسائله إلى الإيجاز و «القصد و التّركيز في عرض أفكارها»[2]، وهذا عندما يتوجّه بها إلى السلطات الفرنسيّة وبعض الشخصيات و الهيئات داخل الجزائر وخارجها، بينما نجده يميل إلى الإطالة و التّفصيل وهو يخاطب عموم الشعب الجزائري.

1- وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. ج6، ص295. نقلا عن البصائر، 18 محرّم1358هـ/ 10 مارس1939م.

2- محمد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ص41.

إنّ التّوجه الموضوعي الذي يغلب على النّتاج المقالي والخطابي لعبد الحميد بن باديس كما تبين لنا لمبرّر؛ على اعتبار أنّهما فنّان يقومان على مخاطبة العقل بالمنطق و الحجّة لا مخاطبته بتفعيل جانب الوجدان و اللّعب على أوتاره، وهذا ما جعل مقالاته و خطبه أسرع وصولاً لعقول الجماهير الجزائرية و قلوبها.

لكن عندما تطفو هذه الموضوعيّة على فن يستحضر الذّات و يخاطب المشاعر كفنّ الرّسائل فهذا يستلزم منّا الوقوف و التّساؤل عن طبيعة تناول هذا الفن عند ابن باديس !؟. و عن أسباب عزوفه عن مناجاة العاطفة و التّكلّم باسمها على الرّغم من أنّها السّبيل الأمثل –عند البعض– للوصول إلى نتائج أسرع؟. وهذا ما سنحاول الإجابة عنه في العنصر التّالي.

4- غياب الأنا في كتاباته:

إنّ غيرية عبد الحميد بن باديس لأمر ظاهر لكلّ من يتصفّح نتاجه المقالي و الخطابي و التّراسلي، وما واقعيّة كتاباته و موضوعيتها إلاّ دليل على ذلك؛ فالعلاّمة كما مرّ بنا سلخ ذاتيته و انحاز لإنسانيته حتّى يكون أكثر قربا من أفراح الإنسان الجزائري و أقراحه، فلمسنا ذلك الإقصاء للذّات و الحضور للآخر في ثنايا كلامه.

فإذا وقفنا على منبر خطبه وجدناها مُفْعَمَة بروح حب الغير، موضوعاتها موجّهة لتوعيته و إيقاظه من سباته، و حتّى الخطب التي كانت تستدعي منه إطراء ذاته و الإسهاب في سرد إنجازاتها – كما سنبيّن– كان يُؤثِر فيها الحديث عن غيره، ويقلّل من حجم إنجازاته، فنجده يقول مثلا في جزء من الخطبة التي ألقاها في الحفل الذي أقيم بمناسبة تكريمه لختمه تفسير القران الكريم ما يلي:

«أيها الإخوان:

...أنا رجل أشعر بكل ما له أثر في حياتي، و بكل من له يد في تكويني، و أن الإنصاف الذي هو خير ما ربي عليه امرؤ نفسه ليدعوني أن أذكر في هذا الموقف التاريخي العظيم بالتمجيد و التكريم كل العناصر التي كان لها الأثر في تكويني حتى تأخذ حظها مستوفى من كل ما أفرغتم على شخصي الضعيف من ثناء ومدح بالقول و الفعل.

فإني أشهد اللّه أنكم بالغتم في التحفي بي و التنويه بأعمالي و أشهد أن هذا التحفي عسير علي جزاؤه ثقيل علي حمله، فلعلي إذا ذكرت هذه العناصر و وفيتها حقها من الاعتراف لها بالفضل توزعت حصصها من التنويه و تقاضت حقوقها

من الثناء الذي أثقلتم به كاهلي، فأكون بذلك قد أرضيت ضميري و خففت عن من نفسي...»[1].

هذا الجزء من هذه الخطبة كما هو ظاهر مثقل بالعبارات التي تقصي صراحة ذات عبد الحميد وافتخاره و إعجابه بإنجازاتها من قبيل: (أن الإنصاف...أن أذكر في هذا الموقف التاريخي...كل العناصر التي كان لها الأثر في تكويني حتى تأخذ حظها مستوفى من كل ما أفرغتم على شخصي الضعيف من ثناء ومدح...فإني أشهد اللّه أنكم بالغتم في التحفي بي و التنويه بأعمالي...فلعلي إذا ذكرت هذه العناصر وفيتها حقها من الاعتراف لها بالفضل...و تقاضت حقوقها من الثّناء الذي أثقلتم به كاهلي فأكون بذلك قد أرضيت ضميري و خففت عن نفسي...).

فابن باديس عدل عن ذكر الجهود التي بذلها في تفسير كتاب اللّه و المنهج الذي اتبعه، و الّصعوبات التي واجهته في سبيل ذلك، ليعترف بمن كان لهم الفضل في تكوين هذه الذّات الضّعيفة كما قال ويأتي في بكورتهم كما ورد في بقية هــذه

1- عمّار الطّالبي: ابن باديس حياته و آثاره. ج2، ص136. نقلا عن الشّهاب، ج4، مج 14، غرّة جمادى الثّانيّة و ربيع الثّاني 1357، جوان جويلية 1938، ص(288-291).

الخطبة «توفيق العناية الإلهية ثم هداية القرآن الكريم ثم والده وشيوخه وأمّته»[1].

و هنا نلاحظ كيف أنّه لم يُصْغِ لأنا العظمة في كلّ ذات إنسانية، أناة تحبّ الإطراء و الحديث عن نفسها، لتظهر قدراتها و تزيد من عظمة ما تفعله أو تقوله بل وجدناه يقلّل من حبّها لنفسها و يخفّف من شغفها للثناء و المدح بذكر فضل غيرها من الذوات الأخرى في صنعها.

وإذا تجوّلنا في أعمدة مقالاته لمسنا ذلك الحرص في معالجة المشكلات التي تعترض ذلك الآخر فكتب في أغلب الموضوعات الاجتماعية، السياسيّة، العلميّة، الدينيّة، الاصلاحيّة، في حين «لم يكن له حضور يذكر في حقل المقالة الذّاتيّة فقد ترك ذلك لغيره، وكان مشغولا عن سماع صوت نفسه بالإصغاء إلى صوت أمّته»[2]، ولعلّه ذكر ذلك صراحة في مقالته الشّهيرة "لمن أعيش" إذ يقول في جزء منها عن الإسلام:

«....فاذا عشت له فاني اعيش للانسانية لخيرها و سعادتها، في جميع أجناسها وأوطانها، وفي جميع مظاهر عاطفتها و تفكيرها، وما كنا لنكون هكذا الا

1- محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص40.

2- المرجع نفسه، ص77.

بالاسلام الذي ندين به ونعيش له و نعمل من اجله.»[1].

ويقول عن وطنه الجزائر:

«...فارى من الواجب ان تكون خدماتي اول ما تتصل بشيء تتصل به مباشرة و كما انني كلما اردت ان اعمل عملا وجدتني في حاجة اليه: لى رجاله و إلى ماله و الى آلامه و الى آماله، كذلك اجدني اذا عملت قد خدمت بعملي ناحية او اكثر مما كنت في حاجة اليه...»[2].

نلاحظ كيف أنّ النّموذجين يمثّلان وثيقة اعتراف بمجاورة الآخر لفكر ابن باديس و وجدانه، فهو يرى أنّه إذا عاش لخدمة الإسلام فهو لا يعيش ليخدم ذاته و فقط و إنّما ليخدم الإنسانيّة جمعاء (الغير)، و إذا أفنى حياته في خدمة وطنه الجزائر فالفضل كلّ الفضل إلى ذلك الآخر (رجال الوطن، آلامهم، آمالهم)، فهو حاضر في ذهنه و وجدانه طواعية وليس غصبا لأنّه لا يمكن أن يخدم شيئا دون أن يشعر بوجوده، و يتفاعل مع أفراحه و أقراحه، و ما أناه إلاّ تابع يسخرها عبد الحميد لخدمة الغير قبل نفسه.

1- عبد الحميد بن باديس: "لمن أعيش". قسنطينة الجزائر، مجلّة الشّهاب، ج10، مج12، غرّة شوّال1355هـ/ جانفي1937م، ص(424-428)

2- المرجع نفسه، ص(424-428).

و لمّا قرأنا رسائله ألفيناها وعاء مُلئ بهموم الجزائريين و آمالهم فلا مكان شاغر لغيرها؛ إذ جاءت في معظمها تخلو من الرّسائل التي يتحدّث فيها عن نفسه و عن رغبات شخصيّة قد يطمح إليها أي شخص كان في منزلته الفكريّة و الاجتماعيّة، وما بيان الاعتذار و الرّفض الذي بعث به إلى أعضاء لجنة المؤتمر الإسلامي الجزائري بعدما نصّبوه رئيسا عليهم إلاّ حجّة على ما أوردنا إذ يقول في جزء منه:

«...غير انني لا يمكنني ان أعمل فيه الا ما يشغلني عما أوقفت له حياتي من نشر الهداية الاسلامية و اللغة العربية و ذلك هو ما لا يتجاوز مركز عضو عامل في اللّجنة.

و لذا لما شرفني اخواني أعضاء اللجنة في غيبتي بمركز الرئاسة لم أبادر بالتلبيّة و أوقفت البت في الأمر على استشارة هيئات ارتبطت معها ارتباطا فكريا و عمليا في خدمة الاسلام و العربية»[1].

لقد كان في مقدور ابن باديس القبول بمنصب الرئاسة الذي أوكل إليه لإرضاء هوى لا يقنع، و إضافـــة لقب إلى مجموع إنجـــازاته لكنّه آثر لنفســـه أن

1- وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. ج6، ص186. نقلا عن البصائر، العدد96، 19 ذي القعدة1356هـ/ 21 جانفي1938م.

تكون خادمة لا مخدومة، تعمل على إرشاد الآخر إلى دينه و لغته خير من تحقيق مكسب شخصي.

نلاحظ أخيرا كيف أنّ نتاج ابن باديس من الخطابة و المقالة و الرّسالة ينأى عن كلّ ذاتية في الطّرح؛ فأناه سجين عقله و قناعته الفكريّة إذا أراد أن يتحرّر لابد له من قتل غيرية ابن باديس و إنسانيّته.

1- غياب الأنا في رسائله

2- حضور الآخر في رسالة "شكر عام للإحساس العام"

أ- قراءة نفسيّة وصفيّة

ب- مستويات الأسلوب في رسالة "شكر عام للإحساس العام"

أوّلا: المستوى التّركيبي

ثانيّا: المستوى الدّلالي

ثالثا: ظواهر أسلوبيّة

3- الانزياح في رسالة "شكر عام للإحساس العام"

4- شهادات تؤكّد غيريّة ابن باديس

إنّ غاية المبدع الأدبي أيّا كان شاعرا أو ناثرا هو الإبلاغ عن حالة شعوريّة أو جمعيّة (إنسانيّة، اجتماعية، سياسيّة...) يلتقي فيها مع الآخر المتلقي، وهو في هذه العمليّة الإخباريّة يسعى للتّأثير في المتلقي و إقناعه بكلّ ما أوتي من وسائل تعبيريّة، تزيّن شكل إبداعه وتجلّي مضمونه.

فما يحاول المبدع أن يوصله للمتلقي محنّط بخطاب نفعي وآخر أدبي، تمثّل اللّغة فيه همزة وصل و تلعب الدّور البارز الذي يمكن من خلاله النّفاد إلى قلب المخاطب و عقله؛ ذلك أنّها «تكشف في كلّ مظاهرها وجها فكريّا و وجها عاطفيّا و يتفاوت الوجهان كثافة حسب ما للمتكلم من استعداد فطري و حسب وسطه الاجتماعي و الحالة التي يكون فيها»[1].

وبالتّالي حتّى يخرج الخطاب في أبهى حلّة و أحسن تصوير لابد أن يراعي المبدع فيه اللّغة التي يريد أن يكتب بها حتّى تصل تصوراته بالمنظور الذي يدور في ذهنه إلى متلق لن يتجاوب معه ويتأثّر بخطابه إذا لم يأخذ المبدع بعين الاعتبار مستواه الفكري و اللّغوي.

1- عبد السّلام المسدّي: الأسلوبية و الأسلوب. طرابلس ليبيا، الدّار العربية للكتاب، ط3، ص40.

وحتى يحصل هذا الخطاب على صكّ الحياة لابدّ أن ينبض بالإحساس الصّادق للمبدع، لأنّه بمثابة الرّوح التي تحرّك أجزاءه و الشّريان الذي يمدّها بالحيويّة و النّشاط «فالإخلاص الصّادق و تصوير ما في النّفس من فكرة واضحة أو عاطفة صادقة يجعل الأسلوب مثاليّا»[1]، فإن كان المبدع صادق التّعبير نضحت لغة خطابه بحسن التّصوير و بالتّالي يكون تفاعل المتلقي و تأثّره بنسيجها ملاذا حتميا.

والسّؤال الذي يطرح نفسه هنا هل استطاعت النّصوص التّراسليّة لعبد الحميد بن باديس من أن تتوفّر على هذا الانسجام بين أعمدتها (مرْسِل، مُرْسَل، مرسَل إليه) ؟، و إذا سلّمنا تاريخيّا أنّ كثيرا من مراسلاته حازت على تفاعل و تجاوب شعبي معها، و أدّت عملها الوظيفي مع سلطة الاحتلال، فما هي الأدوات التّعبيرية و السّمات الأسلوبيّة التي مهّدت الطّريق لبنات أفكاره وجعلتها تصل إلى الآخر؟، ثمّ إلي أي مدى نجحت هذه السّمات الأسلوبيّة التّعبير عن إحساسه الغيري؟.

1- أحمد الشّايب: الأسلوب (دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبيّة). القاهرة مصر، مكتبة النّهضة المصريّة، ط8، 1411هـ/ 1991م، ص185.

1- غياب الأنا في رسائله:

إنّ جنوح عبد الحميد بن باديس للموضوعيّة في رسائله يعود في نظر عديد الدّارسين لآثاره إلى ميزة شخصيّة تكمن في إهماله لأناة الوجدان الفردي الضّيق و تخليه عنه مقابل الإفصاح عن أناة الوجدان الجمعي و التّكلّم باسمه؛ فقد كان ينطق بلسانه و يكتب بقلمه لا ليعبّر عن هواجسه الشّخصية و تطلّعاته الذّاتية و إنّما ليصرخ بآلام و آمال أمّته، لكنّ الملفت في هذه الميزة أنّها طفت في فن يستدعي ذاتية عبد الحميد بن باديس و يسلّم لسيطرتها، وتظهر هذه الميزة في نتاجه التّراسلي من خلال:

أوّلا: أنّ أغلب رسائله جاءت ذات الطّابع العام «سواء منها تلك التي كانت بين الشّيخ و بين هيئات عمومية، أم تلك التي جرت بينه و بين بعض الشّخصيات، فقد تمخّضت جميعها-كما مرّ معنا- لمعالجة قضايا عامّة، و لم يكن أيّا منها بدافع ارتباطات خاصّة أو مصالح شخصيّة، وإنّما كان الدّافع إلى معظمها كلّها عواطف غيرية جماعية»[1]؛ فقد كانت مواضيعها تخدم اهتمامات الجزائريين ومعاناتهم و آمالهم، و لم يثبت عن ابن باديس أنّه بعث رسائلا حقّقت خدمة خاصة له

1- محمد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص38.

أو لأحد أفراد أسرته أو معارفه، فالمسألة عنده مسألة قناعة فكرية و مبدأ إنساني يؤمن به.

ولعلّ من المواقف الكثيرة التي تعرّض لها عبد الحميد بن باديس و التي يمكن من خلالها الاستدلال على تقديمه المصلحة العامّة على المصلحة الخاصّة، و قمعه لأحاسيسه الذّاتية على حساب مبدئه الإنساني الجمعي هو موقفه مع مدير الشّؤون الأهلية بالولاية العامة "ميرانت" حين استدعاه إلى مكتبه ليساومه بين التّخلي عن رئاسة جمعيّة العلماء المسلمين مقابل الإفراج عن والده و مساعدة أسرته في التّخلّص من ضائقتها المالية، فأرسل ابن باديس بعد تعرّضه إلى إغراءات "ميرانت" كتابا يقول فيه:

«أقتل أسيرك يا ميرانت، أما أنا فمانع جاري ! اقتل مصطفى بن باديس و اقتل معه ابنه عبد الحميد، واقض على أسرة ابن باديس، إن منحك اللّه هذه القدرة، و لكنك لن تصل أبدا إلى قتل جمعية العلماء المسلمين بيدي لأن جمعية العلماء ليست جمعية عبد الحميد بن باديس، و إنما هي جمعية الأمة الجزائرية المسلمة، وما أنا إلا واحد فيها أتصرف باسمها و اسم الأمة كلها، و محال أن أتصرف تصرّفا أو أن أقف موقفا يكون فيه قتل الجمعية علـــى يدي. أقول هـــذا

و حسبي اللّه و نعم الوكيل.».[1]

لقد صرخت هذه الرّسالة و بكلّ قوّة بقمع و نكران ابن باديس لكلّ ما هو ذاتي؛ فهو عندما يطلب من "ميرانت" قتل أبيه و قتله هو شخصيا و القضاء على أسرته إنّما يقتل و يرفض سيطرة أحاسيسه و مشاعره الذّاتية ، ويتجرّد منها مقابل إعلاء مبدأ إنساني يخدم الجماعة و إحساسه الغيري ولا يخضع للفرد الواحد و شعوره الأناني؛ فعبد الحميد من خلال خطابه هذا أثبت أنّه لا مكان للمحسوبية في أجندته الفكرية و قراراته الوجدانية، و إن كان لابدّ من مكان فهو لخدمة الجماعة و مصالحها.

ثانيا: ندرة رسائله الشّخصية «باستثناء رسالة وجّهها للشّيخ (الطّاهر العبيدي)، و قد جاءت بأسلوب مصنّع»[2] شاذا فيها عن أسلوبه المرسل، والرّسالة

1- إنّ الذين يذكرون هذه القصّة لا يستندون فيها إلى قول مكتوب، أو رواية موثّقة عن شخص معيّن و إنّما يرجعون في ذلك إلى ما تناقله النّاس عن مواقف ابن باديس من الإغراءات التي تعرّض لها. انظر عبد القادر فضيل و محمّد الصّالح رمضان: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، ص128.

2- محمد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص36.

جاءت ردا على رسالتين بعثهما الطّاهر لعبيدي* له يقول في مقطع منها:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد و آله و سلم الى حضرة علم العلم و الفضل، و معلم الكرم و النبل، التقي الطاهر الأثواب، السرى البارع الآداب، مستحق الشكر منا بما له علينا من سابق الأيدي، العلامة الشيخ سيدي أبي الطيب الطاهر لعبيدي، أدامه اللّه بدرا طالعا في هالة درسه، وغيثا هامعا يحي ربع العلم من بعد طمسه، حتى يبذل وحشة قطره بانسه، و يجتني من بساتين تلاميذه ثمرات غرسه، آمين.

...فلما قدمت و قبلته قدمته على غيره و قبلته، و كان ما دخلني من السرور بمجلو خطابه، مخففا لما غشيني من الخجل لمر عتابه، و لك العتبى يا سيدي فيما ذكرت، و منك الفضل فيما به ابتدأت و تفضلت، فقد بلغتني القصيدة الغراء التـــي

*- ولد في مدينة الوادي سنة 1304هـ/1886-1887م، وتوفي بتقرت سنة 1387هـ/1968م، وكان منذ شبابه إماما مدرّسا بجامع تقرت الأعظم. وقد ظلّ على ذلك إلى وفاته، وكان العبيدي من رجال الوظيفة الرّسمية. وقد درس في مسقط رأسه على شيوخ منهم عبد الرّحمان العمودي و محمد العربي موسى، كما درس في جامع الزّيتونة بتونس، ومن أساتذته هناك الشّيخ محمد الطّاهر بن عاشور. وللشّيخ العبيدي تآليف في موضوعات مختلفة بلغت حوالي 18 تأليفا، وهي صغيرة الحجم و تناول في أغلبها الفقه و التّصوّف والأخلاق والنّحو منها: منظومة من 856 بيتا في التّصوف سمّاها جريان المدد في الاعتصام برجال السّند، رسالة في كيفية العبادة، كما نظم عملا في البلاغة للدّرير سمّاه: نظم رسالة القطب الدّرير في البيان... انظر أبو القاسم سعد اللّه: تجارب في الأدب و الرّحلة. الجزائر، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، 1983، ص(100،101). بتصرّف.

راقت و رقت، و استوجبت الحمد و استحقت، نظرت الى أوصافك الكريمة فحليتني بها، و نسبتني اليها، و اللّه يهدي ببركة محبتك الخالصة ما ظننت، و يجازيك بالخير الجزيل على ما فعلت»[1].

إنّ وجود هذه الرّسالة كشاهد وحيد على كتابة عبد الحميد بن باديس في الرّسائل الشّخصية يعزّز عزوفه التّعبير عن الجانب الشّخصي و الإفصاح عن وجدانه الخاص كقناعة فكرية يسلّم بها، و يؤكّد انشغاله بقضايا وطنه و السّهر على حماية مصالحه، ذلك أنّ «الشّيخ كان بجبلّته -كما يذكر معارفه و تؤكّد آثاره- جادا غيريّا تشغل فكره الاهتمامات العامة و تستغرق وجدانه معاناة الآخرين»[2].

ثالثا: اعتماده في رسائله على الأسلوب البسيط المرسل، و الفكرة المباشرة الواضحة القصد للتّواصل مع الشّعب الجزائري على الرّغم من فصاحة لسانه و بلاغة بيانه، إذ تخلّى عبد الحميد بن باديس عن مقدرة لغوية تسعى كل نفس بشرية انتهاز الفرص لإظهارها و التّباهي بامتلاكها، مقابل تحقيق إفادة عامة يكون فيها المتلقي لخطاباته هو المستفيد الأوّل و الأخير فيها، وهذه غيرية ما بعدها غيرية وبلاغة ما بعدها بلاغة ذلك أنّ واجب البليغ «أن يكون واضحا مفهوما

1- المرجع السّابق، ص(103-105).

2- محمد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص39.

يرمي إلى إفادة قرّائه و رفع مستواهم الثّقافي...و بعد ذلك يأتي التّعبير اللّغوي الذي يتطلّب من المنشئ ثروة لغويّة و قدرة على التّصرّف في التّراكيب و العبارات»[1]، فهو لا يجنح إلى الغموض وتخيّر اللّفظ وتنميق الأسلوب لإرضاء لذّة جمالية خاصّة وإثارة متعة فنية عامة كهدف، وإنّما لكلّ مقام مقال.

وقد وقفنا في خضمّ حديثنا عن أبجديات التّرسل عنده، كيف أنّ بعض رسائله الموجّهة إلى الطّبقة المثقّفة كانت تأتي على درجة جيّدة من حسن التّصوير، وقوّة الأسلوب، و جزالة الألفاظ، مع وضوح فكرتها، وهذا ما يؤكّد جنوح عبد الحميد إلى البساطة و الوضوح كوسيلة تعبيرية متعمّدة لتحقيق حاجة غيرية في نفسه تتمثّل في استمالة عدد كبير من المتلقين لرسائله من جهة، واستدراك قلّة فهمهم من جهة أخرى، و كذلك جلب منفعة عامّة تكمن في تجاوب الشّعب الجزائري مع رسائله و إحداثها الوعي في أذهانهم.

رابعا: إنّ ممّا يؤكّد غياب الأنا في رسائل ابن باديس هو احتواء بعضها على عبارات تقمع مدحه لنفسه وافتخاره بمكانته الاجتماعية و السّياسية و الدّينية، وتذكيرها بفنائها حتى تتواضع لما حقّقته من إنجازات، وترضخ لقناعة صاحبها الفكرية ومن ذلك قوله في خاتمة رسالته التي وجّهها إلى كافة الجماهير الجزائرية

1- أحمد الشّايب: الأسلوب (دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية)، ص186.

و التونسية تحت عنوان "شكر عام للإحساس العام":

«فهذا العاجز يكرر شكره بلسان الحق و الدين لأهل هذا الشعور الطاهر الشريف، سائلا من اللّه تعالى أن يزيده رسوخا في قلوبهم على مدى الايام.».[1]

وكذلك قوله في خاتمة رسالة الشّكر التي بعثها إلى مدير جريدة (البتي ماتان) le petit matin:

«...فشكرا لكم- سيدي- بلسان هذا المبدإ السامي و أهله، ثم بلسان شخصي الضعيف الفاني...»[2].

وأيضا ردّه على من بعث يطلب منه التّدخل لحل تنازع الإباضيين و المالكيين في وادي ميزاب بغرداية حول الآذان حيث يقول في أوّل الجواب:

«هذا العاجز- كما يعلم النّاس كلّهم- كان و لازال من دعاة التّوحيد و الاتحاد...».[3]

1- عبد الحميد بن باديس: "شكر عام للإحساس العام". مجلّة الشّهاب، الجزائر، العدد76، مج2، السّنة الثّانية، 1345هـ/ 23 ديسمبر1926م، ص(15،16).

2- عبد الحميد بن باديس: "سيّدي مدير البتي ماتان المحترم". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، ج5، مج13، جمادى الأولى1356هـ/ 10 جويلية1937م، ص238.

3- عبد الحميد بن باديس: "غرداية وادي ميزاب". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، ج5 مج6، محرّم1349هـ/ جوان1930م، ص(316،317).

فعبارات (فهذا العاجز)، (شخصي الضّعيف الفاني)، (هذا العاجز)، كرّست نكران ابن باديس لذاته و قمعه لأناه الفردي بشكل صريح و واضح و هو بتوظيفه لهذه العبارات يؤكّد تخلصه من كلّ ما من شأنه أن يعلي هذه النّفس و يزيد من سيطرتها و إحساسها بالعظمة.

2- <u>حضور الآخر في رسالة "شكر عام للإحساس العام"</u>:

إنّ حضور الآخر سمة ظاهرة بقوّة في رسائل عبد الحميد على الرّغم من أنّ فنّ الرّسائل فن يخاطب ذّات المُرْسِلِ و يُعَرِّي مكنوناتها، و يستدعي كلّ ما يخالجها؛ فقد وجدنا ابن باديس في رسائله يقصي ذاته و يتجرّد منها، وهذا أمر مستساغ إذا علّلنا ذلك بأنّه يتحرّى الموضوعيّة في طرح بنات أفكاره و ينحاز لها، لكن أن تطفو هذه الميزة (حضور الآخر) على مكاتبات كانت جديرة بحضور الذّات و استلهام كل ما يشوبها فهنا بيت الإبداع.

وقد اخترت لتبيان سطوة هذه السّمة التّعبيرية على مراسلات ابن باديس رسالة "شكر عام للإحساس العام" وهي الرّسالة التي ردّ فيها على البرقيات و الكتب التي تهاطلت على إدارة الجمعيّة تهنئة بسلامته من محاولة اغتيال* فاشلة يقول فيها:

«إنني أشكر الشكر الجم الأمة الجزائرية جمعاء على ما ظهرته[1] من العطف و الشعور نحو شخصي الضعيف، بما رأيت من القسنطينيين كلهم، و ما تلقيته من الكتب و البرقيات من جميع الجهات، و أشكر كذلك الأمة التونسية العزيزة التي لا يفصلنا عنها غير الاعتبارات السياسية من فاصل في الوجود.

إنني –و أيم الله– لأرى نفسي أحقر و أقل من هذا الاعتناء، و لكنني أسر و أبتهج عندما أعلم أن هذا الشّعور العام دليل على[2] في قلوب المسلمين من المكانة العظيمة لكلمة الحق و كلمة الدين اللذين ما أوذيت إلا في سبيلهما من طائفة تدعي الخصوصية في الإسلام و تبعث أتباعها يسطون على الأبرياء بالظلم و العدوان.

*– في ليلة الأربعاء 9 جمادى الأخيرة1345هـ/الرّابع عشر من شهر ديسمبر1926م السّاعة السّابعة مساء، كمن أحد الأوباش للأستاذ العلاّمة عبد الحميد بن باديس في طريق داره بعد خروجه من درس القرآن العزيز، و فاجأه بضربتين بدبوس، الأولى على الرأس و الثّانية تحت العين، و كانت الأولى قويّة للغاية أراد بها الجاني إسقاط الأستاذ للقضاء عليه. انظر أحمد حمّاني: صراع بين السّنّة و البدعة. الجزائر، دار البعث، 1984م، ج1، ص(94–99). بتصرّف.

1– كذا في الأصل و صوابه: أظهرته.

2– كذا في الأصل و صوابه: على ما في قلوب.

فهذا العاجز يكرر شكره بلسان الحق و الدين لأهل هذا الشعور الطاهر الشريف، سائلا من اللّه تعالى أن يزيده رسوخا في قلوبهم على الايام»[1].

أ- <u>قراءة نفسية وصفيّة:</u>

إنّ ما يلفت أي قارئ لهذه الرّسالة لأوّل وهلة هو عنوانها "شكر عام للإحساس العام"؛ فنصفه الأوّل (شكر عام) لا يشكّل استفهاما، على اعتبار أنّه يتقدّم بجزيل الشّكر لكلّ من أبرق و كتب يهنئه على سلامته. لكن ما الذي يقصده ابن باديس بنصفه الثّاني (للإحساس العام)؟، أليس من الصواب و هو يشكر الجماهير على اهتمامهم بسلامته الشّخصية أن يأتي العنوان كالتّالي "شكر عام لإحساس الجماهير بمأساة عبد الحميد بن باديس".

على الرّغم من أنّ الرّسالة كانت فرصة سانحة أمام ابن باديس للحديث عمّا تركته الحادثة من آثار جسديّة و معنويّة، و نافذة يُطَمْئِنُ من خلالها كلّ من تألّم لما وقع له إلاّ أنّ عبد الحميد نأى بنفسه عن كل هذه الهواجس الشخصيّة، و وجّه خطابه إلى جموع الجماهير الجزائريّة و التونسيّة، ليعبّر لها عن سعادته بوعيها ويقظتها؛ فإحساسه الغيري أقصى كل إحساس ذاتي قد ينتابه ويلحّ على البوح به، و هذا ظاهر في نكرانه عن نفسه العناية و الاهتمام الذي طالها إلى درجة أنّه حقّر

1- عبد الحميد بن باديس: "شكر عام للإحساس العام"، مجلّة الشّهاب، ص(15،16).

و قلّل من قيمتها أمام هذا الوعي و الإحساس الجمعي العام، الذي انتصر لكلمة الحق و الدّين لا لحاملها، وهنا يَكْمُنُ سرّ قوله (للإحساس العام)، فابن باديس لم يشكر الجماهير لإحساسهم بشخصه ، كأنا مستقلة تُؤْثِرُ الاهتمام والإطراء لنفسها وفقط؛ وإنّما شكرهم لشعورهم بعبد الحميد بن باديس كأنا تذوب في ذوات أخرى مادام الهدف واحد و هو إعلاء كلمة الحق و الدين، و مجابهة كلّ من يريد القفز فوقها، فالجماهير في رأيّه لم تنتفض للشّيخ، العلاّمة، المصلح؛ وإنّما انتفضت لما تؤمن به قلوبها.

وهذا عزوف صارخ لما يخالج الذّات من أنانية و إيثار جبلت عليه النّفس البشريّة، وتوسّل جارف لموضوعيّة تكتسب بعد معاناة و تجاذبات؛ ، فوجدناه في رسالته «لا يغرم بذاته و لا يصنع من نفسه بطلا»[1]، و إنّما وجدناه يتنكّر لوجدانه الفردي و إحساسه الخاص، ليلتفت إلى وجدان جمعي يتّسع لعبد الحميد و غيره من الذوات الأخرى.

ثمّ إنّ عبد الحميد ابن باديس لم يعمد للّعب على عواطف من يخاطبهم حتى يزيد من شعبيته في محاولة لإرضاء نفس بشريّة جبلت على حب سياسة الانصياع لها، والتّحدّث باسمها، واستدراج قلوب النّاس بواسطتها؛ بل نجده يجاهدها و يكابر

1- إسماعيل عز الدّين: التّفسير النّفسي للأدب. مكتبة غريب، ط4، ص28.

سلطتها حتّى تخضع له و لما تستجديه قناعته الفكريّة لا العاطفيّة؛ لذلك وجدناه في هذه الرّسالة يخاطب عقول من يتوجّه بشكرهم لا إلى قلوبهم وما تحمله من مشاعر اتجاهه، فثمّن وعيهم و ابتهج لتناميه، وشكرهم لانتصارهم لعبد الحميد الفكرة لا لعبد الحميد الشّخص، في حين وجدناه في كلّ مرّة يقبع نفسه عن كلّ محاولة استعلاء عليه فيذكرها بعجزها أمام ما هو راسخ في ذهنه، و أمام إحساسه الغيري.

ب- مستويات الأسلوب في رسالة "شكر عام للإحساس العام":

إنّ استحضار الغير وحظوته بمدح ابن باديس، وشكره لما أبداه من رجاحة عقل و حسن تدبّر، نهج فكري و قناعة شخصيّة بارزة في هذه الرّسالة، بانت من خلال سمات أسلوبيّة رسمت جسرا بين عبد الحميد وبين من يتوجّه إليهم بالخطاب، ويمكن جسّ مدى قوّة هذا الجسر في إيصال خطاب ابن باديس بالوقوف على مستويات التّحليل الأسلوبي في هذه الرّسالة:

أوّلا- المستوى التّركيبي:

أ- الجملة:

لا بأس قبل أن نباشر حديثنا عن الدّلالات التي أفصحت عنها الجمل في رسالة ابن باديس أن نقف عند تعريف ابن جني للكلام (الجملة) قائلا: «أمّا الكـــلام

فكلّ لفظ مستقل بنفسه، مفيد لمعناه و هو الذي يسميه النّحويون الجمل نحو زيد أخوك و قام محمد و صه و مه»[1]، و تتعدّد طرائق صياغة الجمل و التّلاعب بعناصرها بحسب البنية الدّلاليّة و البنية النحوية المتحكّمة فيها.

وقد تنوّعت الجمل في رسالة عبد الحميد بن باديس بين الإسميّة و الفعليّة و طغت فيها الجمل الإخبارية و المثبتة على غيرها من الجمل، فساعدنا هذا التّنوّع على تجاوز البنية السطحيّة لهذه الجمل و النّفاد إلى المدلولات المتوارية وراءها.

ولعلّ ما يلفت انتباهك و أنت تقرأ جُمَلَ رسالة ابن باديس أنّها تعجّ بالأسماء أكثر من الأفعال، فقد أحصينا ما يفوق 60 اسما مقابل 16 فعلا، علما أنّ الجمل الفعليّة تفوق الجمل الإسميّة عددا؛ فوجدناه يستعمل الأفعال ليعبّر عن أحاسيسه الذاتيّة المتجدّدة المتعلّقة به هو فقط كقوله: (أشكر، أرى، أسرّ، أبتهج، أعلم، يكرّر...)، أمّا الأسماء فقد نطقت بأحاسيسه الغيريّة نحو الآخر و أكّدت استقرارها في فكره و ذلك في قوله: (الشكر، العام، الشّعور، الطّاهر، الشّريف...)؛ ذلك أنّ الإخبار بالفعل «يقتضي مزاولة و تجدّد الصّفة في الوقت، و يقتضي الاسم ثبـــوت

1- أبو الفتح عثمان بن جنّي: الخصائص. تحقيق محمّد علي النّجار، مصر، مطبعة الهلال، ط2، 1331هـــ/1913م، ج1، ص17.

الصّفة و حصولها من غير أن تكون هناك مزاولة»[1]؛ فتعبيره عن نفسه بالأفعال و عن الآخر بالأسماء فيه تجاهل لأحاسيسه الذاتيّة على حساب أحاسيسه الغيريّة، فهو لا يهمّه ذلك الإحساس الذّاتي المتغيّر بقدر ما يهمّه إحساسه الغيري الثّابت.

والرّسالة كما هو واضح وثيقة إخبارية لم يجد الإنشاء سبيلا لولوجها، ذلك أنّ عبد الحميد بن باديس –كما ذكرنا سالفا– رجل رزين لا يكتب بروح انفعاليّة، لذلك كان الإثبات حاضرا بقوّة في هذه الرّسالة من خلال تكراره لبعض الجمل والألفاظ والأسماء: (أسماء الإشارة و الأسماء الموصولة) و أدوات التّوكيد: (إنّ، القسم، لام التّوكيد، لكنّ) و كثرة الأسماء و قلّة الأفعال.

ب– <u>التّنكير والتّعريف:</u>

يعدّ أسلوبا التّنكير و التّعريف من الظّواهر الأسلوبيّة المميّزة التي تضفي صبغة بلاغيّة و نكهة فنيّة للخطاب لما لتوظيفها من مقاصد–بحسب السّياق و المقام الذي يَرِدَانِ فيه– تساعد المتكلّم في تحديد المعنى الذي يريده و إظهار ما في نفسه من مشاعر و أفكار، وقد أبان توظيفا في رسالة عبد الحميد بن باديس عن بعض الدّلالات التي خدمته.

1– عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني. تقديم ياسين الأيّوبي، صيدا بيروت، المكتبة العصريّة، ط1، 1421هـ/2000م، ص201.

1- التّنكير:

إن الاسم المُنْكَرَ «هو الواقع على كل شيء من أمته لا يخص واحدا من الجنس دون سائره»[1]، وهو بهذا التّعريف يفيد الإطلاق والإبهام، وهي مظاهر تأتي استجابة لدواع جماليّة و دلاليّة لا يمكن أن تقع والكلمة مُعَيَنَة.

وقد جاء تنكير بعض الكلمات في رسالة عبد الحميد بن باديس ليرسخ مدى نكرانه لذاته و إحساسه بغيره، من خلال ما أوحت به كلمات من مثل (جمعاء، فاصل، أحقر، أقل، دليل...) من إيحاءات خدمته في الإفصاح عن هذه الحالة الشّعوريّة، لكن سنختار من هذه الكلمات ما كان في نظرنا جديرا بالتّعبير عن هذه الحالة الشعوريّة وعمّق إحساسنا بها؛ إذ جاء تنكير كلمات (أحقر، أقل...) في قوله: (لأرى نفسي أحقر و أقل من هذا الاعتناء) لإفادة إمعان التّقليل من والتّصغير من شأن نفسه و ورودها في صيغة المبالغة زاد من تحميل هذه الدّلالة و مكّنه من الاستجابة لنكران تعظيم ذاته، في حين جاء تنكير (دليل) في قوله: (هذا الشّعور العام دليل على ما في قلوب المسلمين) لإفادة معنى التّعظيم و التّفخيم لما يحمله الآخر (المسلمين) في قلبه لكلمة الحق و الدّين.

1- أبو العبّاس محمّد بن يزيد المبرد: المقتضب. تحقيق محمّد عبد الخالق عضيمة، القاهرة مصر، ط2، 1399هـ/1979م، ج4، ص276.

وهنا نلاحظ كيف أنّ تنكير بعض الكلمات ساعد ابن باديس في الإفصاح عن مدى نفيه لذاته وإقصائها، وكذلك عبّر عن مدى إحساسه بالآخر واستحضاره.

2- التّعريف:

إن المعرفة: «ما وضع لشيء بعينه وهي المضمرات، والاعلام، والمبهمات، و ما عرف باللام وبالنداء، والمضاف الى أحدهما معنى»[1]، و قد وردت الأسماء المعرّفة بأنواعها ما عدا النداء بكثافة في رسالة عبد الحميد بن باديس قياسا بالأسماء المنكرة ، و حضرت كظاهرة أسلوبيّة بارزة ألقت بدلالتها على ما يريد إيصاله على اعتبار أن التّعريف في عمومه يفيد تأكيد الدّلالة وزيادة تحميلها سواء بالمدح أو الذّم.

لكنّنا سنلقي الضوء على بعض الأسماء المعرّفة التي أفاد تعريفها في نظرنا عبد الحميد في نفي ذاته وذمها و استحضار الآخر ومدحه، فنجد على سبيل المثال قوله: (شخصي الضعيف)، (هذا العاجز)، فكلمات (شخصي، هذا) معرّفة في حد ذاتها لأنّ شخصي من المضمرات، وهذا من المبهمات (اسم إشارة) فكان لا داعي لتعريف ما بعدهما لأنّه معرّف بهما، لكن لشحذ دلالة الذّم و لإلحاح فكرة التّقليل

1- بدر الدّين بن جماعة: شرح كافية ابن الحاجب. تحقيق و تعليق: محمّد محمّد داوود، دار المنار للنّشر و التّوزيع، مصر، ص234.

من النّفس و إفرادها له هو فقط جاءت كلمات (الضّعيف، العاجز) معرّفة (بال) لتأكّد إقصاء ابن باديس لأناه .

أما في قوله (هذا الشّعور العام)، (هذا الشّعور الطّاهر الشّريف) فجاء ترادف التّعريف لتنفيس إلحاح دلالة مدح الآخر و استحقاقه للإشادة وفي هذا تأكيد لحضوره في وجدان العلامة و فكره.

ت- <u>التّوكيد:</u>

«إنّ التّوكيد تابع يقرّر أمر المتبوع في النّسبة أو الشّمول و هو لفظي و معنوي: فاللّفظي تكرير اللّفظ الأوّل؛ مثل: "جاءني زيد" ويجري في الألفاظ كلّها، والمعنوي بألفاظ محصورة، وهي: "نفسه و عينه، و كلامها وكلّه، و أجمع و ألتع، و أبتع و أبصع»[1]، وقد يأتي بأداة، ويعمد إليه المتكلّم قصد «إزالة ما علق في نفس المخاطب من شكوك، و إماطة ما خالجه من شبهات»[2]، وقد ظهر كسمة أسلوبيّة بارزة في رسالة عبد الحميد بن باديس، وكان أداة طيّعة في يده؛ إذ استطاع أن يستعمله بطرق شتّى في تراكيب مختلفة، ليؤكّد لأناه أنّها مقصات وخارج دائرة

1- بدر الدّين بن جماعة: شرح كافية ابن الحاجب، ص186.

2- مهدي المخزومي: في النّحو العربي(نقد و توجيه). بيروت، صيدا، منشورات المكتبة العصريّة، ط1، 1964، ص234.

حساباته، ويقرّر حضور الآخر مكانها، فلا بأس أن نّعرض الصّيغ التّعبيريّة المؤكّدة التي نطقت بحالته الشّعوريّة هذه من خلال الجدول الآتي:

نفـــي الـــذّات	حضـــور الآخـــر
- إنّني - و أيمّ اللّه - لأرى نفسي أحقر و أقلّ من هذا الاعتناء. - ما أوذيت إلاّ في سبيلهما.	- إنّني أشكر الشّكر الجم الأمّة الجزائريّة جمعاء. - القسنطينيين كلّهم. - التي لا يفصلنا عنها غير الاعتبارات السّياسية من فاصل في الوجود. - لكنّني أسرّ و أبتهج... - يسطون على الأبرياء بالظلم و العدوان. - هذا الشّعور الطّاهر و الشّريف.

لعلّ أول ما نلاحظه أنّ التّوكيد في رسالة ابن باديس و رد بأدوات وهي (إنّ) التّوكيدية، (ما و إلاّ) اللّتان تفيدان القصر، (لام) التّوكيد، و (مِن) التي تفيد

التّوكيد بعد النّفي، كما ورد بغير أداة حيث جاء معنويّا في قوله: (جمعاء)، (كلّهم)، و بتكرار المعنى دون اللّفظ في قوله: (الظلم و العدوان)، (الطّاهر الشّريف).

وقد كشف توظيفه بأنواعه المختلفة في رسالة ابن باديس عن مدى نكرانه لذاته و إقصائه لها و يبرز ذلك في استعماله أكثر من مؤكّد في معرض تقليله من شأن ذاته؛ فنجده يوظّف (إنّ) التّوكيديّة و القسم و (لام) التّوكيد في قوله: (إنّني – و أيم اللّه – لأرى نفسي...) حتّى لا تحكم الجماهير الجزائريّة و التّونسيّة بخلاف ما في نفسه، فهو يريد أن يؤكّد في ذهنها أنّ هذه الذّات لا تستحقّ كل هذا الاعتناء و التّعاطف، فأناه لا شيء أمام انتصارهم لكلمة الحقّ و الدّين.

وليعزّز حضور الآخر داخله، و يؤكّد له أنّ حزنه و فرحه ضمن اهتماماته دون إقصاء لأحد وظّف التّوكيد المعنوي في قوله: (جمعاء) (كلّهم) ، وذلك لتقوية قصد شمول الشّكر للجميع و عدم إفراده بأشخاص دون آخرين، ثمّ نجده يستعمل التّوكيد بتكرار المعنى دون اللّفظ في قوله مثلا: (أسرّ و أبتهج) لتثبيت حالة شعوريّة سعيدة انتابته لما حقّقته الجماهير من وعي، و ليس لأنّها اهتمّت بسلامته الشّخصيّة، فهو من خلال هذا التّوكيد يريد أن يحيلها إلى السّبب الحقيقي لسروره و ابتهاجه.

ثانيّا- <u>المستوى الدّلالي:</u>

إنّ من عوامل نجاح المبدع في إيصال رسالته هو حسن اختياره لألفاظ تظهر ما في نفسه من حقائق و عواطف و أخيّلة، و وظيفته أن ينقلها «من وسطها القاموسي الجامد إلى وسط حيوي»[1]، حتّى يجعلها أكثر إيحاء و أشدّ تأثيرا في المتلقي.

وقد اختار عبد الحميد بن باديس لرسالته ألفاظا بسيطة نجحت بوظيفتها في السّياق الذي وردت فيه في أن تعطي لمعناها المعجمي أبعادا دلاليّة ساعدت في فهم موضوع الرّسالة، و زادت من جمال معناها العام، ويمكن أن ننتقي من هذا المعجم ألفاظا صنّفناها كالتّالي:

معجم الإنسان		معجم الإيمان
ما هو معنوي	ما هو مادي (عضوي)	- اللّه - القسم - الحقّ - الدّين - الإسلام - المسلمين
- الشّعور (الإحساس) - الصّفات: الضّعيف، الحقير، العاجز، الطّاهر، الشّريف.	- القلب - اللّسان	

1- بكّاي أخذاري: تحليل الخطاب الشّعري(قراءة أسلوبية في قصيدة قذى بعينك للخنساء). الجزائر، وزارة الثّقافة الجزائريّة، 2007، ص109.

فالمعجم الأوّل (معجم الإنسان) يحوي ألفاظا جسّدت كل ما يمكن أن يختلف فيه إنسان مع آخر أو آخرين؛ فكلمات (الشّعور، الإحساس، الضّعيف، الحقير، العاجز، الطّاهر، الشّريف) جسّدت هذا الاختلاف من حيث أنّها تمثّل ما هو متغيّر أو ثابت أو خاص أو عام عند فرد دون آخر أو عند جماعة دون أخرى، أمّا كلمات (القلب و اللّسان) فكانت ذلك الوعاء الذي يحمل كل ما هو معنوي؛ فالقلب هو موضع الإحساس و الشّعور و المنبع الذي يورّد الإنسان بالصّفات الحسنة أو السّيّئة، و اللّسان هو المعبّر عن كلّ هذا.

أمّا المعجم الثّاني(معجم الإيمان) فهو معجم لا يخضع لثقافة الاختلاف، و إنّما لمنطق التّسليم؛ فكان ابن باديس يؤكّد كل ما هو مختلف فيه بما هو مسلّم به، فأكّد صفات(الضّعيف، العاجز، الحقير) بالقسم، و وضع شعوره و شعور الجماهير أمام محكمة الدّين، و الحقّ، و الإسلام ، لأنّها الميزان العدل في صدق كلّ هذا.

إنّ الإيحاءات التي اكتسبتها هذه الكلمات إلى جانب دلالتها المعجمية ساعدت في فهم ما وراء الرّسالة، و جعلتها أكثر تعبيرا و أشدّ تأثيرا، و الجدول التّالي يوضّح ذلك:

الكلمة	دلالتها المعجميّة	دلالتها التي عدلت إليها
- الشّعور العام - الإحساس العام	- حالة عاطفيّة	- جسّدت تلك المفارقة بين ما هو: 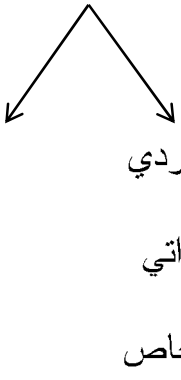
- الضّعيف - أحقر - العاجز	- صفات سيّئة	- رمز لنكران كل ما هو ذاتي.
- الشّريف - الطّاهر	- صفات حسنة	- رمز لاحتواء كل ما هو جمعي غيري.
- أسرّ، أبتهج	- حالة شعوريّة سعيدة	- توحي بالانتصار على الذّات.
- القلب	- عضو يضخّ الدّم و هو منبع الإحساس	- رمز للحبّ و الاحساس الصّدق
- اللّسان	- عضو يساعد في عمليّة الكلام و هو عضو يمكّننا من التّذوّق.	- رمز لقول الحقّ.
- القسم باللّه	- يمين متعارف عليه.	- يحيل على الصّدق في القول.
- الحقّ	- ضدّ الباطل.	- دلالة على إنصاف المظلومين و الانتصار لهم.
- الدّين - الإسلام	- العقيدة - ديانة سماويّة	- رمز للالتزام و الرّضوخ

يتّضح لنا من خلال الجدول أنّ عبد الحميد بن باديس مَكَّنَ كلماته على بساطتها من اكتساب إيحاءات نطقت بما هو خفي؛ فقد ساعدته بعضها على إيصال مدى إحساسه بالآخر وتقديره لما حقّقه من وعي، وذلك من خلال توظيف الكلمات التّالية (الشّعور العام، الإحساس العام، الشّريف، الطّاهر)، و مكّنه بعضها الآخر التّخلّص من إعجابه بذاته و عبادتها من خلال التّقليل من شأنها بتوظيف كلمات (الضّعيف، أحقر، العاجز)؛ فكانت كلمات (القلب، اللّسان) أصدق ما يعبّر عن إحساسه هذا؛ فالقلب موطن الإحساس، واللّسان سبيل الاعتراف به، بل نجده يقرّ بنشوة انتصاره على ذاته بكلمات أوحت بذلك وهي من قبيل: (أسرّ، أبتهج)، وحتّى يؤكّد هذه المفارقة وظّف كلمات يسلّم بها الجميع و يلتزم بكلّ ما تأمر به وهي (القسم: أيمّ اللّه، الحق، الدّين، الإسلام).

ثالثا- <u>ظواهر أسلوبيّة:</u>

من بين الظّواهر الأسلوبيّة التي كشفت عن تجلّيات ظاهرة غياب الأنا وحضور الآخر في رسالة ابن باديس نجد:

أ- **التّكرار:**

يعدّ التّكرار سمة فنيّة هامة لتقريب عالم النّص، و الكشف عن مكنوناته من خلال «الإتيان بعناصر متماثلة في مواضع مختلفة من العمل الفني»[1]، فهو أداة تعبيريّة بارزة تفصح لنا عن ملامح الحالة الشّعورية للمبدع وتمكّننا من فك رموزها؛ فالمبدع يلهج بتكرار ما يشوب داخله من انفعالات يحاول بثّها من خلاله. وعبد الحميد بن باديس كغيره من الأدباء عمد إلى التّكرار كوسيلة تعبيريّة تنطق بما يشغل باله و وجدانه.

أ-1- **تكرار المعنى بأكثر من لفظ:**

يعتبر اللّفظ وعاء للمعنى فهو «جسم و روحه المعنى وارتباطه به كارتباط الرّوح بالجسم يضعف بضعفه و يقوى بقوّته»[2]، أمّا إذا تكرّر لفظ بعينه أو بلفظ يحمل مدلوله فإنّه ترسيخ لما يحمله من معنى، و دلالة على سطوة المعنى على وجدان المبدع و فكره فيلجأ إلى تكرار اللّفظ لتنفيس إلحاح المعنى من جهة، و من جهة أخرى لفت الانتباه إلى حالة شعوريّة ما دون غيرها.

1- مجدي وهبه، كامل المهندس، معجم المصطلحات العربيّة في اللّغة و الأدب. بيروت لبنان، مكتبة لبنان، ط2، 1984م، ص117.

2- أبو الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي: العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده. تحقيق محمد محي الدّين عبد الحميد، سوريا، دار الجيل، ط5، 1401هـ/1981م، ج1، ص124.

وفي رسالة ابن باديس وردت كلمات من مثل: (الضّعيف، العاجز) لتحيلنا في معناها السياقي إلى عدم القدرة، و (أحقر، أقلّ) لتحيلنا في معناها السياقي كذلك إلى عدم الاستحقاق، وهذا التّأكيد للمعنيين بأكثر من لفظ يفصح عن رسوخ حالة شعورية في فكر عبد الحميد و تمكّنها من وجدانه، فكان التّكرار سبيلا للتّعبير عنها؛ فتكرار المعنيين بأكثر من لفظ يحيلنا إلى دلالة ضمنيّة مفادها أنّ الرّجل يمعن في تمريغ ذاته وتثبيط استعلائها، والتّقليل من مكانتها، فهو لا شيء أمام هذا الإحساس العام و الإعلاء الخالص لكلمة الدّين و الحق.

أ-2- <u>تكرار لفظ بعينه للإيحاء بأكثر من دلالة:</u>

إنّ تكرار لفظ بعينه للإيحاء بأكثر من دلالة جرعة جمالية عبّرت عن حالة شعورية سعيدة انتابت ابن باديس، وهذا ما نلمحه في تكراره لكلمة (الشكر) التي كان لها حضور كثيف في نصّ هذه الرّسالة بحيث وردت 5 مرّات، وحمل تكرارها على بساطتها شحنتان دلاليتان متباينتان؛ فكان تكرارها في الفقرة الأولى من الرّسالة ليظهر امتنانه لما أبدته الجماهير الجزائريّة و التّونسيّة من اهتمام بسلامته، وهنا كان تكرار الشكر تكرارا عاديا و دلالته مألوفة.

أمّا الشحنة الدّلالية الثانية لتكرار كلمة (الشكر) فنلمسها في الفقرة الأخيرة من الرّسالة، وقد حمل تكرارها زخما فكريا؛ فالشكر هنا لم يكن للجماهير كأجساد

وإنّما كان للجماهير كعقول، عبّرت بطريقة غير مباشرة – في نظره – من خلال الرّسائل التي بعثتها أنّ من سارعت للاطمئنان على سلامته ليس عبد الحميد الشّخص، الدّاعية، المصلح...، و إنّما عبد الحميد المبدأ و الفكرة والقيم النّبيلة التي تنشدها، وتدفع كلّ غال و رخيص من أجل تجسيدها على أرض الواقع بغض النّظر عن هويّة المدافع عنها، فجاء تكرار الشّكر هنا ليوحي بدلالة غير مألوفة وهي شكر الجماهير لوعيّها وفطنتها.

أ-3- <u>تكرار جملة:</u>

رأينا فيما سبق كيف أنّ تكرار كلمة بذاتها أو بمعناها رصد لنا الحالة الشعورية التي أراد عبد الحميد بن باديس أن يبثّها لنا، أو يثير انتباهنا نحو ما يعنيه تكراره لها هو بحد ذاته، فلا بأس من أن نسلّط الضّوء على نوع آخر من هذا التّكرار الذي يكون بتكرار جملة أو عبارة بذاتها أو بإعادة صياغتها مرّة أخرى، أو باستبدال أحد عناصرها على شرط المحافظة على المعنى؛ حتّى تتضح لنا أكثر الحالة الشّعورية التي سكنت عبد الحميد عند كتابته لهده الرّسالة.

لعلّنا نتّفق أنّ العبارات التي تكرّرت 4 مرّات حاملة نفس المعنى في هذه الرّسالة على الرغم من استبدال أحد عناصرها هي: (الإحساس العام، هذا الشّعور العام، هذا الشعور الطّاهر الشّريف)، كما وردت ضميرا متصلا في جملة (أن

يزيده رسوخا)، أي هذا الشّعور الطّاهر الشّريف، وهذه العبارات كانت المنبّه الذي كان يؤكد من خلاله عبد الحميد بن باديس أنّ حقيقة سعادته و سروره راجعة إلى الوعي الذي لمسه في الجماهير لا لاهتمامهم بشخصه الضّعيف؛ فهو في قرارات نفسه لا يعترف إلاّ بهذا الشّعور العام الغيري الذي يذوب فيه الشّعور الفردي و يرتفع فيه صوت الشّعور الجمعي ليشكّل إحساسا واحدا يستحقّ الثّناء و الشّكر، فلا مجال للسّعادة في نفس ابن باديس كأنا منفردة دون ذلك الإلحاح الغيري الذي يفرض نفسه بقوة في داخله حتّى خرج في صورة تكرار لهذه الجملة، فالتّكرار هنا «ليس غاية في حدّ ذاته وإنّما هو وسيلة فنيّة و إبلاغيّة لتوصيل المعنى و تحديده»[1].

ب- <u>الصّيغ الصّرفية:</u>

تلعب الصّيغ الصرفية دورا بالغ الأهمية في عمليّة صناعة المعنى و التّلاعب به لما تمنحه للألفاظ من مرونة في الدّلالة والإيحاء بمجرّد التّغيير في تركيبها الأصلي أو الزّيادة عليه، أو لما يحدثه وقعها في الأذن من تفاعل معها.

1- بكّاي أخذاري: تحليل الخطاب الشعري(قراءة أسلوبية في قصيدة قذى بعينيك للخنساء)، ص69. نقلا عن نصر الدّين ابن زرّوق: الأسلوب في شعر محمد العيد آل خليفة(رسالة ماجستير مخطوطة). جامعة الجزائر، 1995، ص(211،212).

وفي رسالة عبد الحميد بن باديس صيغ صرفيّة –على قلّتها– تعتبر مفاتيحا لفهم المعنى و إجلاء إيماءاته، أضاءت لنا عالم النّص و قرّبتنا إلى ما ارتسم في ذهنه و ما علق بوجدانه عند توظيفها، ومن بين هذه الصّيغ نجد:

- **صيغة الصّفة المشبّهة باسم الفاعل:**

إنّ الصّفة المشبّهة باسم الفاعل هي «الصّفة المصوغة لغير تفضيل لإفـــادة الثّبوت كحسن، ظريف، وطاهر، وضامر»[1]، وقد وردت هذه الصّيغة أربع مرات في رسالة عبد الحميد في قوله: (الضّعيف، العاجز، الشّريف، الطّاهر) والتي جاءت على وزن فَعِيْل و فَاعِل.

و بما أنّ الصّفة المشبّهة صفة لازمة و ثابتة و ليست صفة طارئة فقد أراد ابن باديس أن يؤكّد من خلال وظيفتها هذه على حقيقتين ثابتتين لا تقبلان أن نطعن في صدق إحساسه بهما؛ أما الحقيقة الأولى فهي اعترافه لنفسه وللجماهير بقلّة حيلته وعدم قدرته على الرّغم من المكانة الدينيّة والاجتماعيّة و السياسيّة التي يتمتّع بها أمام إرادة و قدرة إلاهيّة لا يمكن مضاهاتها بأي حال من الأحوال، فكانت صيغ الصّفة المشبّهة التي تفيد اللّزوم والثّبات من قبيل (الضّعيف، العاجز)

1– جمال الدين عبد اللّه بن هشام الأنصاري: شرح قطر النّدى و بلّ الصّدى. تحقيق بركات يوسف هبور، بيروت لبنان، ط1، 1418هـ/1997م، ص370.

أفضل من ينطق بهذه الحقيقة.

أمّا الحقيقة الثّانية فهي اعترافه أنّ للجماهير قدرة على التّمييز، ومساحة من الوعي أثبتت بفضلها أنّ الاعتداء ليس على عبد الحميد الدّاعية المصلح و فقــط، وإنّما هو اعتداء على ما تؤمن به من إحقاق للحقّ و إعلاء لكلمة الدّين فما كان منه إلاّ أن ينعت شعورها بالشّريف الطّاهر وهي صفات مشبّهة لا تقبل القسمة على اثنين في كلّ زمان.

فهذه الصيغة بوزنيها كرّست ولاء عبد الحميد بن باديس للجماهير (الآخر)، وأكّدت إحساسه الغيري النّابع من اعترافه للجماهير أنّ ما تألموا له ليس من صنع عبد الحميد الشّخص الضّعيف، العاجز؛ وإنّما هو من صنع ما زرعه اللّه في قلوبهم، فسَقَوه بإيمانهم به، و حصّنوه باستماتتهم في الدّفاع عنه.

3- <u>الانزياح في رسالة "شكر عام للإحساس العام":</u>

تكمن وحدة قياس القوّة لأي أسلوب في مدى نجاعته في تحقيق متعة فنّية عند المتلقّي والتي لا تكون إلاّ باختيار «الكاتب لما من شأنه أن يخرج بالعبارة عن حيادها و ينقلها من درجتها الصّفر إلى خطاب يتميّز بنفسه»[1]، وهذا ما يعرف بالانزياح.

إنّ حضور الانزياح كميزة أسلوبيّة بارزة في رسالة "شكر عام للإحساس العام" لعبد الحميد بن باديس أمر غير وارد بكثافة على مستوى الدّال، و لعلّ هذا مبرّر على اعتبار أنّ ابن باديس جنح إلى وضوح عبارات رسالته و بساطة أسلوبها.

لكنّه كان حاضرا بقوّة على مستوى المدلول، فالانحراف كما يكون على مستوى التّركيب قد «يكون بشحنة دلاليّة خاصّة»[2]، تعدل عن المألوف، وتخرج عن السّياق المتواتر عليه عند المتلقّي.

و في رسالة ابن باديس تآليف لفظيّة انحرفت دلالتها عن السّياق المتوقّع لها عند المتلقّي، و قد ورد هذا في قوله: (على ما أظهرته من العطف و الشّعور نحو

1- عبد السّلام المسدّي: الأسلوبية و الأسلوب، ص102.

2- صلاح فضل: علم الأسلوب مبادئه و إجراءاته. القاهرة مصر، دار الشّروق، ط1 ، 1419هـ/ 1998م، ص217.

شخصي...)، وكذلك في قوله: (لأرى نفسي...)؛ فالمتأمّل لهتين العبارتين سوف يلحظ أنّ الدّلالة المتواترة و الأغلب التي تَتْبَع حديث شخص ذي مكانة اجتماعية عاليّة عن نفسه هي أن يعظّم ذاته و يمدحها خاصّة إذا وردت بضمير المتكلّم (أنا).

شخصي ← أنـــا

نفســـي ← أنـــا

لكنّ عنصر المفاجأة كان حاضرا من خلال «تولّد اللاّمنتظر من خلال المنتظر»[1]، فالمستقبل لرسالة ابن باديس كان مهيّأ نفسيّا لدلالة معيّنة ارتسمت في ذهنه مسبقا عند سماع توليفة لفظيّة بصيغة المتكلّم إلاّ أنّه اصطدم بدلالة غير متوقّعة تنكر الذّات و تقلّل من شأنها فإذا بالعلاّمة يُكْمِلُ قائلا: (على ما أظهرته من العطف والشّعور نحو شخصي الضّعيف)، (لأرى نفسي أحقر و أقلّ من هذا الاعتناء).

شخصي ←أنا ← الضّعيف (دلالة غير متوقّعة)

نفســي ←أنا ← أحقر و أقلّ (دلالة غير متوقّعة)

1- عبد السّلام المسدّي: الأسلوبية و الأسلوب، ص86.

إنّ هذه الدّلالة المنزاحة عن سياقها المتواتر عليه خُلِقَ على إثرها «توتّر ذبذبيّ بين لذّة التّقبّل و خيبة الانتظار لدى القارئ»[1]، فبعدما كانت (أنا) المتكلّم عنده علامة لغويّة تنذر بدلالة التّعظيم و الافتخار أضحت في رسالة ابن باديس تحتفي بدلالة التّواضع و التّقليل من النّفس و هنا تكمن لحظة التّوتّر و المتعة في سمة العدول عن المألوف.

وأخيرا نلاحظ كيف أنّ انزياح دلالة ضمير المتكلّم (أنا) عن الدّلالة المتواتر عليها عند قراءتها أو سماعها أفعمت إحساسنا بغيريّة عبد الحميد بن باديس و زادت من رجحان نكرانه لذاته.

1- المرجع السّابق، ص84.

4- شهادات تؤكّد غيريّة ابن باديس:

لقد رسم القدر لابن باديس طريقا انحنت له الجباه، واعترفت به الألسنة، وتعاقبت على أكله أجيال سابقة، ومازالت تجني ثماره أجيال لاحقّة، فما قدّمه عبد الحميد بن باديس كما قالت جريدة le petit matin «لا يمكن أن يتضاءل، و لا أن يقف بل إنّه لعمل لا يسير إلاّ إلى الأمام و لابدّ له أن يتضخّم، و أن ينتشر كالسّيل العرم المدن، و الباديّة و يحيّ الموات و يتلف المعارضة»[1].

هي طريق عبّدها لغيره، قضى فيها بياض نهاره و سواد ليله ليبعث دين أمّته و يحيّي لغتها، كيف لا و هو القائل: «إنّي أعاهدكم على أن أقضي بياضي على العربيّة و الإسلام، كما قضيت سوادي عليهما»[2]، فمن راوده شكّ أنّ عبد الحميد بن باديس قد عاش لنفسه فإنّ عبد الحميد قد مات، لكنّ ما تركه في عقول الجزائريين و قلوبهم باق ما بقي الدّهر لا يموت.

إنّ إنسانيّة عبد الحميد بن باديس و غيريته تاج شهد بتأثير بريقه على الأمّة الجزائريّة جمعاء العديد ممّن عرفه، ولابأس أن نورد بعضا من هذه الشّهادات:

1- عبد الحميد بن باديس: "وقالت البتي ماتان". مجلّة الشّهاب، ص(228-230).

2- عمّار الطّالبي: ابن باديس حياته وآثاره. ج1، ص121. نقلا عن مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، ج7، مج15، رجب1358هـ/ أوت1939م، ص 346.

- شهادة المفكّر الجزائري مالك بن نبي:

«...ومعجزة الحياة في الجزائر بدأت بصوت الشّيخ عبد الحميد بن باديس و ندائه فأيقظ المعنى الجماعي، و حوّل مناجاة الفرد إلى حديث الشّعب»[1].

- شهادة رفيق كفاحه الشّيخ البشير الإبراهيمي:

«يموت العظماء فلا يندثر منهم إلاّ العنصر التّرابي الذي يرجع إلى أصله، وتبقى معانيه الحيّة في الأرض، قوّة تحرّك، و رابطة تجمع، و نورا يهدي، وعطرا ينعش...و إذا كان من خوارق العادات في العظماء أنّهم يبنون من الضّعف قوّة، ويخرجون من العدم وجودا، و ينشئون من الموت حياة، فكلّ ذلك فعل عبد الحميد بن باديس من الأمّة الجزائريّة.»[2].

- شهادة أحمد توفيق المدني:

«...رحم اللّه ابن باديس العظيم، لقد دخل عالم الخلود من أوسع أبوابه، ومن كان مثله علما و عملا و جهادا و نفعا و تواضعا و زهدا و ورعا فهو خالد لا يموت، إنّه موجود في كلّ قلب، إنّه حيّ في كلّ فكر، إنّه حاضر في كلّ ضمير،

1- المرجع السّابق، ص91

2- محمّد البشير الإبراهيمي: آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، جمع و تحقيق أحمد طالب الإبراهيمي. بيروت لبنان، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997م، ج3 عيون البصائر(1947-1952)، ص(588- 589)، بتصرّف.

إنّه الشّمس المشرقة التي لا تغيب أبدا مهما قال شانئوه، ومهما همز و لمز حاسدوه»[1].

- شهادة الشّيخ العربي التبسي:

«...إنّ الرّجال لا تسجّل أنسابهم و لا صورهم و لا أموالهم في سجلّ الإنسانيّة، شرائعها و رجالها، و إنّما تسجّل عقائد الذين غرسوا عقائدهم في نفوس النّاس... و إنّما تسجّل أعمال الذين أخرجوا النّاس من فوضى اجتماعيّة إلى نظام اجتماعي، توارثته الإنسانيّة بعدهم»[2].

إنّ هذه الشّهادات حجّة على غيريّة عبد الحميد ابن باديس، فكلّها تؤكّد أنّه عظيم وخالد؛ لأنّه لم يعش ليحقّق مجدا لنفسه و إنّما عاش ليخدم الجزائر و أبناءها، بل ليخدم الإنسانيّة جمعاء بمواقفه و إنجازاته، كيف لا و هو الذي سأله أحد طلبته يوما أن يخصّص وقتا لتأليف الكتب فأجابه ابن باديس قائلا: «إنّ الشّعب يا بني ليس اليوم في حاجة إلى تأليف الكتب بقدر ما هو في حاجة إلى تأليف الرّجال، هب أنّي انصرفت إلى التّأليف و انقطعت اليوم عمّا أنا اليوم بصدده من

1- عبد القادر فضيل، محمّد الصّالح رمضان: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، ص256. نقلا عن توفيق المدني حياة كفاح، ج2، ص275.

2- المرجع نفسه، ص259. نقلا عن البصائر، العدد187، 21 أبريل1952.

نشر العلم و إعداد نشئ الأمّة من أمثالكم لمواصلة عملي فمن يقرأ كتبي و تآليفي ما دام الشّعب يتخبّط في ظلمات الجهل و الأميّة»[1].

هي إجابة صريحة عن كلّ الأسئلة التي طرحناها من قبل فكلّ شيء ينطق بغيريّة عبد الحميد بن باديس آراؤه، كتاباته، أصدقاؤه، و حتّى أعداؤه.

1- باعزيز بن عمر: من ذكرياتي عن الإمامين الرّئيسين عبد الحميد بن باديس و محمّد البشير الإبراهيمي، ص(35،36).

إنّ ما قدّمه عبد الحميد ابن باديس للجزائر بل للإنسانيّة جمعاء من دروس في التّضحية و الوفاء و الاستماتة في قهر الأعداء، والنّفس الطّويل للظفر بقطرة حقّ من حقوق الجزائريين حتّى يرويهم بنور العلم و يخلّصهم من عتمة الجهل لا يمكن أن تضمّها عبارات أو فقرات أو حتّى مجلّدات لأنّ ما أفنى عبد الحميد حياته عليه دين لا سداد له إلاّ جزاء من الواحد الأحد.

لكنّ سنّة كلّ بحث تفرض علينا أن نضع القلم و نجمل ما توصّلنا إليه في النّقاط التّاليّة:

- لعلّ أوّل ما استنبطناه من هذا البحث أنّ لفن الرّسائل في الأدب الجزائري جذور ضاربة في عمق تاريخ الأدب العربي، تميّز في بعض فتراته بالرّصانة و الجودة، و اتّسم في أخرى بالرّكاكة و الضّعف.

- لفن الرّسائل في الأدب الجزائري أدباء جهابذة في اللّغة و الأدب وضعوا بصماتهم عليه، لكنّهم ظلوا مغمورين، و لم يأخذوا حظّهم من البحث و الدّراسة من أمثال: الإمام أفلح بن عبد الوهّاب، و ابن الرّبيب القيرواني، و الوهراني، وغيرهم كثير.

- ظلّ التّرسّل مواتا بعد العهد العثماني، و يرسف في أغلال التّكلّف و الصّنعة اللّفظيّة إلى أن ظهرت الحركة الإصلاحيّة فأحيته بعدما بثّت فيـــه روح البساطـــة

و الوضوح.

– ظهور عبد الحميد بن باديس كمصلح ديني و اجتماعي يتحدّث بلسان بسيط و حجّة قويّة أكسبه شعبيّة و استجابة واسعة.

– قوّة عبد الحميد ابن باديس الأدبيّة تكمن في بساطة أسلوبه و واقعيّة طرحه، إذ وجدناه في أغلب نتاجه النّثري (الخطابي و المقالي و التّراسلي) يتحرّى الموضوعيّة و يجنح لها.

– التّرسّل عند الحركة الإصلاحيّة عموما و عند عبد الحميد بن باديس بخاصّة لم يكن وثيقة تبدأ بوابل من العبارات المسجوعة التي تعظّم المرسل إليه وتمجّده، وتنتهي بعبارات الشّكر و الولاء له، وإنّما كانت سيفا يذود به عن حقوق الجزائريين، لا تكلّف يعتريها و لا تملّق، تلتزم البساطة في خطّ كلماتها و القصد و المباشرة في طرح مواضيعها.

– إنسانيّة عبد الحميد بن باديس و واقعيّة طرحه و موضوعيّة تفكيره جعلته يتنكّر لطموحاته الشّخصيّة، فجاءت موضوعات نتاجه النّثري بعامة و التّراسلي بخاصّة تنضح بمشكلات الجزائريين (الآخر) و همومهم.

– إنّ إحساس عبد الحميد ابن باديس بالآخر و حضوره في ذهنه و كتاباته كانت سببا رئيسا في وضوح موضوعات رسائله و بساطة أسلوبها ن فمن غير المنطقي

أن تأتي رسائله على هذه الدّرجة من البساطة وهو رجل تشرّب اللّغة من أمّهات الكتب العربيّة إلاّ إذا كان هدفه يسمو عن أيّ مكسب شخصي دنيوي.

- اللّغة عنده لم تكن هدفا، و إنّما كانت وسيلة يسخّرها لخدمة الآخر (الجزائريين) حتّى يستدرك جهله و قلّة وعيّه.

- مستويات التّحليل الأسلوبي كانت السّبيل الأنجع في نظري للكشف عن الوجه الجمالي للعملة الإنسانيّة في شخصيّة ابن باديس و كتاباته، فقد كانت الوسيلة الملائمة للوّقوف على سرّ بساطة أسلوب رسائله، ومدى قوّة تأثيرها.

- اعتماد مناهج أخرى إلى جانب المنهج الأسلوبي (كالمنهج الوصفي، المنهج النّفسي...) ضرورة أدبيّة ساعدتني كثيرا للولوج إلى عالم رسائل ابن باديس، و تبرير غياب أناه و حضور الآخر فيها.

الرّسالة الأولى:

من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

الى عموم المسلمين الجزائريين

السلام عليكم و رحمة اللّه وبركاته

أيها الاخوة الكرام

ان الخلاف كله شر، و شره ما كان في الدين و أشنع أنواعه و آلمها لكل ذي غيرة على دينه ما يقع كل عام بهذه الديار من اختلافكم في الصوم و الافطار.

و ان الشؤون الدينية اذا اخرجت على الاعتبارات الدينية و تناولها أيدي التعصب صارت الى شر الحصائر و كان من آثارها في الامة الجفاء و التعادي، ثم التشتت و الاختلاف، ثم الوهن و الانحلال.

ان مسألة الصوم و الافطار خرجت من عندنا من باب الاعتبار الديني الى باب التعصب الشخصي أو الحزبي، و من آيات ذلك أن أصبحنا نرى في هذه الامة من يصوم لان فلانا مفطر، ومن يفطر لان فلانا صائم و من القبيح الشنيع أن نجعل الدين –الذي هو مناط وحدتنا ومقعد ارتباطنا– موضوع اختلافنا و دائرة تفرقنا وسبب تفكك رابطاتنا.

قد حذرنا القرآن الكريم –و هو الحجة القائمة علينا– من التفرق في الدين مدرجة لمفارقته فهل من مدكر.

و لو كان هذا الاختلاف من باب اختلاف العلماء فيما لا نص فيه أو فيه ظاهر يقبل التأويل على وجوه من النظر شتى لكان للمختلفين عذر قائم و وجهة سديدة و لكنه اختلاف يمت الى الهوى بأقرب الانساب و ينجذب الى التعصب بأوثق الاسباب و حجته الداحضة قولهم: رأى بنو فلان و لم نر، مع أن السماء و احدة و العيون في الابصار متكافئة كأن الله جعل الرؤية شرطا عينها في الصوم العيني و لم يجعل اللّه ذلك و لكن الهوى جعله.

أيحسن في الشرع أو يجمل في الذوق أن يكون في القبيلة الواحدة مفطـــر و صائم ثم لا يكفي ذلك حتى يكون في البيت الواحد مفطر و صائم.

أيحسن في الشرع أو يجمل في الذوق أن تكون في البلدة الواحدة أسرة مبتهجة بالعيد بطالعه السعيد كبارها يتقبلون التهاني و التبريكات و صغارها يتقلبون في صنوف الافراح و المسرات بينما جار الجنب صائم ممسك و أولاده يتحرقون حسرة و يتميزون غيظا و ان كانوا لا يدرون على من؟ و لو كان الفرق يوما واحدا لهان الامر و لكنه اليومان و الثلاثة، فلا عجب اذا كان هذا الحال من

اسباب الضغائن و الحقود تحملها القبيلة للقبيلة و الاسرة للاسرة ثم يحملها الاولاد للاولاد.

بلى ولكن الحسن في الشرع و الجميل في الذوق هو أن يتحد الناس في الصوم فيصبحون صائمين في يوم واحد يجمعهم الخضوع لامر الشريعة و الظهور بسر الشعيرة و تلوح عليهم جميعا سيما الاجلال و آثار الجلال، ثم يصبحون مفطرين في يوم واحد مستبشرين بنعمة الله عليهم فيصلون و يتزاورون و يشرك غنيهم فقيرهم فيما أتاه الله من فضل و يطوون من تاريخهم صحيفة ختامها عبادة و ينشرون منه صحيفة طفراؤها عيد و سعادة فبهذا يجمعون بين امثال أمر الله و بين تحقيق حكمة اللّه.

و بهذا لا بغيره تتجلى حقيقة الاتجاه الديني المستتبع بالطبيعة للاتحاد القومي.

و بهذا لا بغيره نغتبط بالتآخي و نجني ثمراته ثم نورثه لاولادنا رطبا جنيا و سائغا هنيا.

أرأيتم كيف وازنت الشريعة بتسوية صلاة الفذ بصلاة الجماعة فجعلت الثانية أرجح وزنا و أحسن ثوابا فلم ذلك؟

أرأيتم كيف راضتنا الشريعة بتسوية الصفوف في الصلاة و شددت في ذلك حتى ورد في الترغيب أن اللّه يباهي بصفوفنا الملائكة و ورد في الترهيب الوعيد بالمخالفة بين وجوهنا فلم ذلك؟

ذلك كله لنرتاض على الاتحاد المثمر لكل خير حتى يصير لنا ملكة تصدرعنها الاعمال منظمة و حتى نأمن شر التخبط و الاضطراب.

ان الشريعة تريدنا على التوحيد حتى في قصودنا و توجهاتنا و سائر تصرفاتنا فكيف ترضى منا الاختلاف في الصوم و الافطار.

أيها الاخوة الكرام ان التروى في الرؤية و التثبت في اثباتها و الاحتراز من الشهادات المدخولة كل ذلك حسن وكل ذلك في الاستبراء للدين و الاحتياط في الدين، و ليس هذا الذي ننهى عنه و انما ننهى عن الغلو فيه حتى يذهب معناه و يخلفه التعصب المذموم.

أيّها الإخوة الكرام ان جمعية العلماء التي ما اسست الا لخدمتكم و انارة الطريق امامكم لتصلوا منها الى الحق في دينكم و دنياكم، تدعوكم الى الحسنى و تناشدكم اللّه و اخوة الاسلام ان تراجعوا بصائركم في هذه المسألة وتأخذوا فيها بالحزم الديني و لا تأخذوها من طريق الهوى، فليس للهوى على النفوس المؤمنـــة

سلطان و لان تجتمعوا على الخطأ المغتفر خير من أن تختلفوا على الصواب الموهوم و استعينوا على قتل الخلاف، بالحرص على تعميم الرؤية ان ثبتت، و الساهل في تلقيها من طريق الكتابة أو من طريق النقل الشفوي و تواصوا بالحق فيما بينكم حتى يهتدى الحيران و يثوب الغوي الى الرشد.

والسلام عليكم و رحمة اللّه و بركاته.

جمعية العلماء المسلمين

الرئيس: عبد الحميد بن باديس[1]

الرّسالة الثّانيّة:

منشور المقاطعة

نداء إلى سكان قسنطينة المسلمين

اخواني القسنطينيين !

في هذه الايام، منذ قرن، مات اجدادكم المجاهدون المدافعون و الفرنسيون المهاجمون في ميدان البطولة و الشرف، وطويت صفحة من التاريخ على شهادته بالشجاعة و التضحية للغالب و المغلوب.

1- وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. الجزائر، 2007، ج6، ص(68-71). نقلا عن النّجاح العدد 1258، 7 رمضان1350هـ/ 16 أبريل1932م.

و مضت مائة سنة كانت كافية لنسيان تلك المأساة، وضمد تلك الجروح، وتقريب السّكان المتجاورين بعضهم من بعض.

لكن قوما من الانانيين الذين يابون الا أن يكونوا سادة متفوقين، و الا ان يشعروا المسلمين بسلطة الغالبين على المغلوبين، –هؤلاء القوم–وليسوا كل الفرنسيين– ارادوا في هذه الايام ان يقيموا احتفالات عسكرية بدخلة قسنطينة، تثير العواطف، و تمس كرامة الاحياء منا والاموات، وتنافي مبادى الاخوة و الرحمة التي ندعو إليها.

يحتفلون احتفالاتهم و مطالب الشعب الجزائري بعرقلتهم معرقلة، و حقوقه بسعيهم مهملة، وسوط القوانين الاستثنائية نازل بيدهم على ظهره في كل يوم.

لهذا قد اجتمعت 14 جمعية اسلامية من جمعيات قسنطينية يوم السبت 18 سبتامبر الماضي في نادي الاتحاد و كانت كلها مستنكرة لهذه الاحتفالات عازمة على مقاطعتها، فقررت –بالاجماع– مايلي: نحن–الممثلين لجمعياتنا– نرى احتراما لانفسنا و احتراما لاجدادنا، واحتراما للانسانية:

أولا– ان لا نشارك في هذه الاحتفالات و لا نحضرها.

ثانيا– ان نكون في هدوء تام عام.

إخواني القسنطينيين قد فعل المؤتمر الاسلامي الجزائري واجبه فاحتج على هذه الاحتفالات في اجتماعه العام الاخير، وقدم مكتبه ذلك الاحتجاج الى الوالي العام، و قدمه مكتب لجنته القسنطينية إلى مير قسنطينة. وفعلت الجمعيات الإسلامية القسنطينية بما قررته في قرارها المتقدم. واخوكم هذا –كقسنطيني– فعل واجبه بنشر هذا المنشور عليكم. فما بقي إلا ان تقوموا انتم بواجبكم.

فقاطعوا هذه الاحتفالات و لا تشاركوا فيها.

كونوا في هدوء و سلام.

والسلام عليكم من اخيكم **عبد الحميد بن باديس.**

حرر بالمنصورة حوز تلمسان مساء الثلاثاء 23 رجب

1356هـ/1937.09.28م[1]

1– عبد الحميد بن باديس: "منشور ونداء الجمعية لمقاطعة احتفالات فرنسا". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، ج9، مج13، رمضان1356هـ/ نوفمبر1937م، ص(427–429).

الرّسالة الثّالثة:

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب مفتوح إلى النواب الجزائريين الاحرار

بالعمالات الثلاث

السلام عليكم و رحمة الله و بركاته،

وبعد؛ فلا يخفى عليكم ان منزلتكم من الامة منزلة الركيل المؤتمن، وان بينكم و بين الامة التي أولتكم شرف النيابة عنها و ملكتم حق التكلم باسمها– عقدا يلزمكم بواجبات و حقوق للامة لا يخرجكم من عهدتها الا القيام على تحقيقها بالمحافظة على الموجود و السعي في تحصيل المفقود.

و لا يخفى عليكم أيضا أن أعلى و أغلى ما افرغت الامة ثقتها عليكم لاجله وجمعت ثقتها المتفرقة فيكم للمحافظة عليه هو دينها و لغتها و انها قد تغفر لكم التقصير في كل شيء و تقبل منكم الاعتذار عن كل شيء الا فيما يتعلق بدينها و لغتها. و قد كانت للحكومة الفرنسوية سوابق عهود قانونية مسجلة مؤكدة بالشرف الفرنساوي في المحافظة لهذه الامة على دينها و لغتها و لكنها في هذه السنوات الاخيرة سلكت مع الدين و لغته سياسة تناقض تلك العهود و المواثيق و ترمي في غايتها إلى محو الدين و لغته.

و قد كانت الامة الجزائرية تشكو من الظلم و الغبن و مازالت تعلق عليكم الآمال في ازالة ذلك الظلم أو تخفيفه، فما راعها الا هذا الظلم الجديد و الغبن العظيم في التعليم الديني العربي الذي هو اعز عليها من أرواحها و في المدارس التي شادتها بجهودها و انفقت عليها من أموالها.

قد بلغتكم الحوادث المؤلمة التي هي ثمار هذه السياسة من تعطيل التعليم بمدرسة تلمسان الى الآن و قرأتم قرار 8 مارس المشؤوم و فهمتم مغزى تلك الاعمال، و مرمى هذا القرار فماذا صنعتم لهذه امة في هذه النكبات المنصبة عليها؟ ان الواجب يتقاضاكم و ان تعلنوا اعمالكم، و ان تقفوا المواقف المشرفة لأمتكم و دينكم و للغتكم.

ان قرار 8 مارس تكميل لما قبله و نذير لما بعده، و اننا اذا ضممنا الى ما تعودناه من الحكومة الجزائرية من رفض الرخص تكون النتيجة اعدام التعليم الديني العربي لان طالب الرخصة لا يجاب و المعلم بدون رخصة يحل به العقاب. ان جمعية العلماء يأبى لها الواجب ان تسكت عن هذا القرار و سوابقه و هي تدعوكم الى القيام بواجبكم في هذه المسألة. و الى وضع يدكم في يدها لمقاومة هذا القرار الجائر و أصوله بالطرق المشروعة، و تعلن في صراحة ان المحافظة على دين الامة و لغتها من أولى واجباتكم، و ان الدفاع عنها ليس من خصائص جمعية

العلماء بل حق للجميع، لان الدين دين الجميع و اللغة لغة الجميع. ان جمعية العلماء تعد من دلائل اهتمامكم بهذه المسألة العظيمة ان تقرروا موقفكم فيها و تعلنوه و تخبرونا و لكم بعد ذلك من الامة الشكر و منا الثناء و التقدير و من الله الأجر.

عبد الحميد بن باديس[1]

الرّسالة الرّابعة:

يوم 8 مارس

يوم حزن وحداد على تعليم الاسلام و لغة الاسلام

برقيّة شكوى و استنكار

رئيس الوزارة الفرنسيّة م .دالادى–باريس

يا جناب الوزير،

إلى اليوم، و في هذه الظروف ما يزال التضييق متواليا و متزايدا على التعليم الإسلامي.

1– وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. ج6، ص197. نقلا عن البصائر، العدد110، السّنة الثّالثة، 21 صفر1357هـ/ 22 أبريل1958م.

فالمساجد محجرة، و كثير من المدارس معطلة، و كثير من الكتاتيب القرآنية مغلقة، و كثير من المعلمين متابعون في المحاكم و مئات الآلاف من أبنائنا مشردون في الشوارع.

يمتثل الشيوخ للقانون فيطلبون رخص التعليم و يقدمون جميع اللوازم، فلا يسمع لهم صوت. بل كثيرا ما نزعت الرخص من أيد أصحابها.

كل هذا من آثار قانون 8 مارس المطبق على التعليم الإسلامي تطبيقا جائرا مغرضا، بمنع الرخص عن أهلها وبنزعها منهم بينما التعليم الاجنبي –و الاجنبي المعادي– يتمتع بكل حرية و احترام.

يا جناب الوزير:

انني في هذا اليوم يوم 8 مارس الذي هو أسوأ الايام في تاريخ الاسلام بالجزائر– أرفع إليكم باسم الاسلام كلمة الاستنكار التام لهذه الحال، وأقدم إليكم باسم المسلمين مر الشكوى من هذه المعاملة الخاصة التي تركت في القلوب أسوأ الآثار وأوجع الآلام.

راجيا منكم أن تتداركوا الأمر بما عرف عنكم من حكمة وبعد نظر ووزن للأحوال.

لكم باحترام

رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

عبد الحميد بن باديس[1]

الرّسالة الخامسة:

بيان واعتذار

إلى إخواني أعضاء لجنة المؤتمر

لا أعرف من معنى المؤتمر الاسلامي الجزائري الا أنه اتحاد جميع العناصر الجزائريّة للمطالبة بالحقوق الواجبة لها على فرنسا كأمة مرتبطة بها، و المحافظة على المقومات اللازمة لها كأمة عربية مسلمة. و على العقيدة دعوت للمؤتمر و عليها عملت فيه و عليها سابقى عاملا.

غير انني لا يمكنني ان أعمل فيه الا ما يشغلني عما أوقفت له حياتي من نشر الهداية الاسلامية و اللغة العربية و ذلك هو ما لا يتجاوز مركز عضو عامل في اللغة.

1- وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. ج6، ص295. نقلا عن البصائر، 18 محرّم1358هـ/ 10 مارس1939م.

و لذا لما شرفني اخوتي أعضاء اللجنة في غيبتي بمركز الرئاسة لم أبادر بالتلبيّة و أوقفت البث في الامر مع استشارة هيئات ارتبطت معها ارتباطا فكريا و عمليا في خدمة الاسلام و العربية.

فلمّا استشرتها كانت في أغلبيتها الكبرى ترى رجحان القيام بالخدمة الدينية العلمية، و ترى القيام برئاسة المؤتمر مما يعطل الجانب الاكبر من هذه الخدمة فما وسعني الا قبول اشارتها و الصدور عن رأيها.

و لهذا أقدم اعتذاري للجنة المؤتمر في عدم قبول الرئاسة مع بقائي مستعدا دائما –ان شاء الله– للمشاركة في العمل كبقية الاعضاء.

و السلام عليكم ورحمة اللّه من أخيكم:

عبد الحميد بن باديس

قسنطينة 12 ذى القعدة 1356هـ– 14 جانفي 1938م.[1]

1– وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. ج6، ص186. نقلا عن البصائر، العدد96، 19 ذي القعدة1356هـ/ 21 جانفي1938م.

الرّسالة السّادسة:

جوابه إلى ميرانت

أقتل أسيرك يا ميرانت، أما أنا فمانع جارى ! اقتل مصطفى بن باديس و اقتل معه ابنه عبد الحميد، واقض على أسرة ابن باديس، إن منحك اللّه هذه القدرة، و لكنك لن تصل أبدا إلى قتل جمعية العلماء المسلمين بيدي لأن جمعية العلماء ليست جمعية عبد الحميد بن باديس، و إنما هي جمعية الأمة الجزائرية المسلمة، وما أنا إلا واحد فيها أتصرف باسمها و اسم الأمة كلها، و محال أن أتصرف تصرفا أو أن أقف موقفا يكون فيه قتل الجمعية على يدي. أقول هذا و حسبي اللّه و نعم الوكيل.[1]

الرّسالة السّابعة:

رسالة ابن باديس إلى الطاهر لعبيدي

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى اللّه على سيدنا محمد و آله و سلم إلى حضرة علم العلم و الفضل، و معلم الكرم و النبل، التقي الطاهر الأثواب، السرى

1- عبد القادر فضيل و محمّد الصّالح رمضان: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، ص128.

البارع الآداب، مستحق الشكر منا بما له علينا من سابق الأيدي، العلامة الشيخ سيدي أبي الطيب الطاهر لعبيدي، أدامه الله بدرا طالعا في هالة درسه، وغيثا هامعا يحي ربع العلم من بعد طمسه، حتى يبذل وحشة قطره بانسه، و يجتني من بساتين تلاميذه ثمرات غرسه، آمين.

وبعد سلام كما تفتحت الازهار في نسمات الاسحار، و تحية تحي قديم التذكار، و ان شطت الدار، فاني كتبته اليكم من حضرة قسنطينة يوم قدومي من رحلة كنت اعملتها لناحية الجزائر و تلمسان، لزيارة الاحياء و الأموات من العلماء و الصلحاء و أعيان الزمان، فتشرفت بسادات كثرين، من العلماء و الصالحين، و من أعظم الجميع قدرا، و أشهرهم ذكرا، سيدي أبي مدين الغوث و سيدي محمد السنوسي بتلمسان، و سيدي بن عبد الرحمان و سيدي عبد الرحمن الثعالبي بالجزائر، و دعونا لنا و للمؤمنين عامة، و لأخواننا أمثالكم خاصة، بما نرجو من الله تعالى فيه القبول و بلوغ المأمول و ذكرت لكم هذا لما اعمله فيكم من محبة الصالحين، و اذا مكنتني الفرص ان شاء اللّه تعالى كاتبتكم عن هذه الرحلة بمزيد تفصيل، و وافي كتابكم في غيابي في هذه الرحلة:

فلما قدمت و قبلته قدمته على غيره و قبلته، و كان ما دخلني من السرور بمجلو خطابه، مخففا لما غشيني من الخجل لمر عتابه، و لك العتبى يا سيدي فيما

ذكرت، و منك الفضل فيما به ابتدأت و تفضلت، فقد بلغتني القصيدة الغراء التي راقت و رقت، و استوجبت الحمد و استحقت، نظرت إلى أوصافك الكريمة فحليتني بها، و نسبتني إليها، و الله يهدي ببركة محبتك الخالصة ما ظننت، و يجازيك بالخير الجزيل على ما فعلت.

هذا و اني ما أخرت الجواب متهاونا(استغفر اللّه) و لا متكاسلا، و لكنني حسبت أني اجبتكم فيمن اجيب، حتى جاء كتابكم فعلمت انني غالط فيما ظننت، فبادرت في هذا متحاملا على فهمك، معتمدا على فضلك، و العفو، يا سيدي، من شيمة أمثالك، لا أحرمني اللّه من أفضالك، و أقول:

ان كنت قصــرت فــي الكتابــة و اللــه مـــا حلت عــن ودادي
و انـــــما كــان ذاك منـــــي عــن غفلــة ليس مــن مــرادي
فسامحــوا، طاهــري، بفضـــل و حسبكـــم مســـــكا فــؤادي

و يعود من العبد و جماعته السلام عليكم، و على جماعتكم و احبابنا كلهم لديكم، و كثيرا، داعيا لكم بالخير، طالبا منكم مثله، أخوكم وشاكر فضلكم و مملوك احسانكم:

في شهر جمادى الثانية عام 1337

عبد الحميد ابن باديس

عفي عنه[1]

الرّسالة الثّامنة:

غرداية

«وادي ميزاب»

هذا العاجز –كما يعلم الناس كلهم– كان و لا زال من دعاة التوحيد و الاتحاد. و كنت و لا زلت أقول في مجالسي و دروسي ان المذاهب الفقهية غير الاربعة المشهورة هي كالاربعة تتفق و تختلف عن نظر و اجتهاد. و كان لكلامي هذا –بحمد اللّه– أثره الطيب المقصود. فلما قرأ الناس في الصحف الدورية خبر منع اخواننا الأباضية اخوانهم المالكية بغرداية من شعيرة الأذان كثر منهم من سألني: ماذا تقول؟ واين ما كنت تقول؟ كأن من يدعو الى الاتحاد مسؤول عما يأتيه من يدعو و يفعل ما يدعو الى الفريق

لا، أنا لست مسؤولا عن هذا –و إن كنت أعظم متألمٍ منه– بل المسؤول عنه هم أولئك الاخوان المتنوِّرون الذين أعرفهم هنا و هنالك من اهل وادي ميزاب.

1– أبو القاسم سعد اللّه: تجارب في الأدب و الرّحلة. الجزائر، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، 1983، ص(103–105).

فاليهم يتوجه الرجاء في حسم هاته المسألة بالحق و النصفة بين اولئك الاخوان المتنازعين –ذاكرين قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا المُؤمِنُونَ إخوَةٌ فَأَصلِحُوا بَيْنَ أخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللّهَ لَعَلَكُمْ تُرْحَمُونَ[1]﴾[2].

الرّسالة التّاسعة:

سيدي مدير(البتي ماتان)المحترم

تحية و تقدير

سيدي–انا–كمسلم–ادين بالاخوة الانسانية و احترامها في جميع اجناسها و اديانها، و اسعى للتقريب بين جميع عناصرها، و و اجاهد فيما هو السبيل الوحيد لتحصيل ذلك وهو العدل و التناصف و الاحترام. فكل ما تفضلتم به في جريدتكم من ذكري فهو موجه الى هذا المبدأ الاسلامي الانساني الذي تساهم فيه جريدتكم بنصيب وافر. فشكرا لكم –سيدي– بلسان هذا المبدإ السامي و أهله، ثم بلسان شخصي الضعيف الفاني.

1– سورة الحجرات: الآية10.

2– عبد الحميد بن باديس: "غرداية وادي ميزاب". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، ج5 مج6، محرّم1349هـ/ جوان1930م، ص(316،317).

لكم احترامات معظمكم

عبد الحميد بن باديس[1]

الرّسالة العاشرة:

شكر عام للاحساس العام

إنني أشكر الشكر الجم الأمة الجزائرية جمعاء على ما ظهرته من العطف و الشعور نحو شخصي الضعيف، بما رأيت من القسنطينيين كلهم، و ما تلقيته من الكتب و البرقيات من جميع الجهات، و أشكر كذلك الأمة التونسية العزيزة التي لا يفصلنا عنها غير الاعتبارات السياسية من فاصل في الوجود.

إنني –و أيم الله– لأرى نفسي أحقر و أقل من هذا الاعتناء، و لكنني أسر و أبتهج عندما أعلم أن هذا الشعور العام دليل على في قلوب المسلمين من المكانة العظيمة لكلمة الحق و كلمة الدين اللذين ما أوذيت إلا في سبيلهما من طائفة تدعي الخصوصية في الإسلام و تبعث اتباعها يسطون على الأبرياء بالظلم و العدوان.

1– عبد الحميد بن باديس: "سيّدي مدير البتي ماتان المحترم". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، ج5، مج13، جمادى الأولى1356هـ/ 10 جويلية1937م، ص238.

فهذا العاجز يكرّر شكره بلسان الحق و الدين لأهل هذا الشعور الطاهر الشريف، سائلا من اللّه تعالى أن يزيده رسوخا في قلوبهم على الايام.[1]

1- عبد الحميد بن باديس: "شكر عام للإحساس العام". مجلّة الشّهاب، الجزائر، العدد76، مج2، السّنة الثّانية، 1345هـ/ 23 ديسمبر1926م، ص(15،16).

*- القرآن الكريم.

1- أحمد حمّاني: صراع بين السّنّة و البدعة. الجزائر، دار البعث، 1984م، ج1.

2- أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر. الجزائر، المؤسّسة الوطنية للكتاب، 1985.

3- أحمد الشّايب: الأسلوب(دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية). القاهرة مصر، مكتبة النّهضة المصرية، ط2، 1411هـ/1991م.

4- أحمد بن محمد المقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب. تحقيق إحسان عبّاس، بيروت لبنان، دار صادر، 1388هـ/1968م، مج2، مج3، مج5.

5- إسماعيل عز الدّين: التّفسير النّفسي للأدب. مكتبة غريب، ط4، ص28.

6- أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية. تعريب خليل أحمد خليل، بيروت لبنان ،منشورات عويدات، ط2، 2001، مج1(A-G)، مج2(H-G).

7- باعزيز بن عمر: من ذكرياتي عن الإمامين الرئيسين عبد الحميد بن باديس و محمد البشير الإبراهيمي. الجزائر، منشورات الحبر، ط2، 2007.

8- بدر الدّين بن جماعة: شرح كافية ابن الحاجب. مصر، تحقيق و تعليق محمّد محمّد داوود، دار المنار للنّشر و التّوزيع.

9- بكّاي أخذاري: تحليل الخطاب الشعري(قراءة أسلوبية في قصيدة قذى بعينيك للخنساء). الجزائر، دار الثّقافة العربية، 2007.

10- جبور عبد النّور: المعجم الأدبي. بيروت لبنان، دار العلم للملايين، ط2، كانون الثّاني(يناير)، 1984.

11- جمال الدين عبد اللّه بن هشام الأنصاري: شرح قطر النّدى و بلّ الصّدى. تحقيق بركات يوسف هبور، بيروت لبنان، ط1، 1418هـ/1997م.

12- جميل صليبا: المعجم الفلسفي. بيروت لبنان، دار الكتاب اللبناني، 1982، ج1.

13- أبو الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي: العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده. تحقيق محمد محي الدّين عبد الحميد، سوريا، دار الجيل، ط5، 1401هـ/1981م، ج1.

14- خير اللّه عصّار: مقدّمة لعلم النّفس الأدبي. الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعيّة، 1982.

15- خير الدين الزّركلي: الأعلام(قاموس تراجم لأشهر الرّجال و النّساء من العرب و المستعربين و المستشرقين). بيروت لبنان، دار العلم للملايين، الطبعة15، أيّار(مايو)، 2002، ج2.

16- رابح تركي: الشّيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتّربيّة في الجزائر. الجزائر، المؤسّسة الوطنية للنّشر و التّوزيع، ط5، 1422هـ/2001م.

17- ركن الدين محمد بن محمد بن محرز الوهراني: منامات الوهراني و مقاماته و رسائله. تحقيق ابراهيم شعلان و محمد نغش، كولونيا ألمانيا، منشورات الجمل، ط1 ، 1998.

18- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدّول و الإمارات (الجزائر، المغرب الأقصى، موريتانيا، السودان). مصر القاهرة، دار المعارف مصر، ط2.

19- عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر. بيروت لبنان، مؤسّسة نويهض للثّقافة التّأليف و التّرجمة و النّشر، ط2، 1400هـ/1980م.

20- أبو العبّاس أحمد القلقشندي: صبح الأعشى. القاهرة مصر، دار الكتب المصرية، 1340هـ/1922م، ج1.

21- أبو العبّاس محمّد بن يزيد المبرد: المقتضب. تحقيق محمّد عبد الخالق عضيمة، القاهرة مصر، ط2، 1399هـ/1979م، ج4.

22- عبد السّلام المسدّي: الأسلوبية و الأسلوب. طرابلس ليبيا، الدّار العربية للكتاب، ط3.

23- عبد القادر فضيل، محمد الصّالح رمضان: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس. الجزائر، دار الأمّة، 1998.

24- عبد الكريم بوصفصاف: جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّة وعلاقاتها بالحركات الجزائريّة الأخرى(دراسة تاريخيّة و إيديولوجيّة مقارنة). قسنطينة الجزائر، دار مداد، ط2، 2009.

25- عبد الكريم بوصفصاف: الفكر العربي الحديث و المعاصر(محمد عبده و عبد الحميد بن باديس(نموذجا). قسنطينة الجزائر، دار مداد، ط1، 2009، ج1.

26- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني. تقديم ياسين الأيّوبي، صيدا بيروت، المكتبة العصريّة، ط1، 1421هـ/2000م.

27- عبد اللّه الركيبي: تطور النّثر الجزائري الحديث 1830-1974. ليبيا تونس، الدّار العربية للكتاب، ط2، 1398هـ/1978م.

28- عبد المالك مرتاض: فنون النّثر الأدبي في الجزائر1931-1954. الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983.

29- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتّبيين. تحقيق عبد السّلام محمد هارون، ج1.

30- عمار زايد: النّقد الأدبي الجزائري الحديث. الجزائر، المؤسّسة الوطنية للكتاب، 1990.

31- عمّار الطّالبي: ابن باديس حياته وآثاره. بيروت لبنان، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1403هـ/1983م،ج1، ج2، ج3.

32- عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي الأدب في المغرب و الأندلس (من أوائل القرن السّابع إلى أواسط القرن العاشر للهجرة، أوائل القرن الثالث عشر إلى أواسط القرن

السادس عشر للميلاد)، بيروت لبنان، دار العلم للملايين ، ط1، حزيران (يونيو) 1983، ج6.

33- عمر فرّوخ: تاريخ الأدب العربي الأدب في المغرب و الأندلس (منذ الفتح إلى آخر عصر ملوك الطّوائف). بيروت لبنان، دار العلم للملايين، ط1، حزيران (يونيو)، 1983، ج4.

34- عمر بن قينة: في الأدب الجزائري الحديث تاريخا..و أنواعاً، و قضاياً..وأعلاماً. الجزائر، ديوان المطبوعات الجزائرية، ط2، 2009.

35- أبو الفتح عثمان بن جنّي: الخصائص. تحقيق محمّد علي النّجار، مصر، مطبعة الهلال، ط2، 1331هـ/1913م، ج1.

36- أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزّمخشري: أساس البلاغة. تحقيق محمد باسل عيون السود، بيروت لبنان، دار الكتب العلمية، ط1، 1419هـ/1998م، ج1.

37- أبو القاسم سعد اللّه: تاريخ الجزائر الثّقافي. الجزائر، دار البصائر ، طبعة خاصّة، 2007، ج2(1500-1830)، ج8(1830-1954).

38- أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب و الرّحلة، الجزائر. المؤسّسة الوطنية للكتاب، 1983.

39- مجدي وهبه، كامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللّغة و الأدب. بيروت لبنان، مكتبة لبنان، ط2، 1984م.

40- مجمع اللّغة العربية: المعجم الفلسفي. القاهرة مصر، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1403هـ/1983.

41- مجمع اللّغة العربيّة: المعجم الوسيط. جمهورية مصر العربية، مكتبة الشّروق الدّوليّة، ط4، 1425هـ/2004م.

42- محمّد البشير الإبراهيمي: آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي. جمع وتحقيق أحمد طالب الإبراهيمي، بيروت لبنان، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997م، ج3 عيون البصائر(1947- 1952).

43- محمد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس). الجزائر، مطبعة الكاهنة، 2003.

44- محمد الطمّار: تاريخ الأدب الجزائري. الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، 2010.

45- محمد عبّاس: البشير الإبراهيمي أديبا. وهران الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

46- الأمير محمد عبد القادر: تحفة الزّائر في مآثر الأمير عبد القادر و أخبار الجزائر(سيرته السيفيّة). الإسكندرية مصر، المطبعة التجارية، 1903، ج1.

47- محمد عناني: المصطلحات الأدبيّة الحديثة(دراسة و معجم إنجليزي-عربي). الشركة المصرية العالمية للنّشر- لوجمان، ط3، 2003.

48- محمد ناصر: الصّحف العربيّة الجزائريّة من 1847م إلى 1954م. بيروت لبنان، دار الغرب الإسلامي، ط3، 1427هـ/2007م.

49- ابن منظور: لسان العرب. عبد اللّه علي الكبير، محمد أحمد حسب اللّه، هاشم محمد الشّاذلي، القاهرة مصر، دار المعارف، ط4، (مج1، ج1)، (مج1، ج3)، (مج3، ج17) (مج5، ج36).

50- مهدي المخزومي: في النّحو العربي(نقد و توجيه). بيروت، صيدا، منشورات المكتبة العصريّة، ط1، 1964

51- مولود عويمر: أعلام وقضايا في التّاريخ الإسلامي المعاصر. القبة القديمة الجزائر، دار الخلدونية، ط1، 1428هـ/2007م.

52- نوار جدواني: سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. الجزائر، دار المعرفة، 2009.

53- وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. الجزائر، 2007، ج6.

المجلاّت:

1- عبد الحميد بن باديس: "خطاب الرّئيس الأستاذ عبد الحميد بن باديس". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، ج8، مج13، شعبان1356هـ/ أكتوبر1937م.

2- عبد الحميد بن باديس: "خطاب رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي ألقاه في الاجتماع العام بمركز الجمعية بنادي التّرقي بالعاصمة". قسنطينة الجزائر، مجلّة الشّهاب، ج8، مج12، شعبان1355هـ/ نوفمبر1936.

3- عبد الحميد بن باديس: "خطبة رئيس الجمعية التي ارتجلها في الاجتماع العام بعد تجديد مكتب الإدارة". قسنطينة الجزائر، مجلّة الشّهاب، ج8، مج12، شعبان 1355هـ/ نوفمبر1936م.

4- عبد الحميد بن باديس: "سيّدي مدير البتي ماتان المحترم". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، ج5، مج13، جمادى الأولى1356هـ/ 10 جويلية1937م.

5- عبد الحميد بن باديس: "شكر عام للإحساس العام". مجلّة الشّهاب، الجزائر، العدد76، مج2، السّنة الثّانية، 1345هـ/ 23 ديسمبر1926م.

6- عبد الحميد بن باديس: "غرداية وادي ميزاب". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، ج5 مج6، محرّم1349هـ/ جوان1930م.

7- عبد الحميد بن باديس: "كلمة صريحة". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، ج1، مج12، غرّة محرّم1355هـ/ 1936م.

8- عبد الحميد بن باديس: "لمن أعيش". قسنطينة الجزائر، مجلّة الشّهاب، ج10، مج12، غرّة شوّال1355هـ/ جانفي1937م.

9- عبد الحميد بن باديس: "منشور المقاطعة نداء إلى سكان قسنطينة المسلمين". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، ج9، مج13، رمضان1356هـ/ نوفمبر1937م.

10- عبد الحميد بن باديس: "وقالت البتي ماتان". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، ج5، مج13، جمادى الأولى1356هـ/ 10 جويلية1937م.

11- عبد اللّه بن محمّد طاهر تّرسي: "ثنائيّة الأنا و الآخر بين الصّعاليك و المجتمع الجاهلي". مجلّة التّراث العربي، دمشق، العدد المزدوج 120-121، (كانون الثّاني نيسان 2011- رمضان ذي الحجّة 1431هـ).

12- محمّد البشير الإبراهيمي: "مناجاة مبتورة لدواعي الضّرورة". البصائر، قسنطينة الجزائر، السّنة الثّانيّة، العدد76، جمادى الثّانية 1368هـ/ 18 أبريل1949م.

مقدّمـــــــة:..... أ

المدخل التّمهيدي: قراءة في مفهوم المصطلح و مدوّنة المفهوم

1- تحديد بعض المصطلحات..... 2

2- تطوّر فن الرّسائل في الأدب الجزائري.....14

3- التّرسّل في الأدب الجزائري خلال القرنين التّاسع عشر و العشرين الميلاديين

.....27

الفصل الأوّل: عبد الحميد بن باديس و الكتابة النّثريّة

1- نبذة عن حياة ابن باديس.....41

2- دوره الإصلاحي.....45

3- نتاج ابن باديس النّثري.....49

أ- الخطابة.....51

ب- المقال.....58

ج- فنّ الرّسائل عند ابن باديس.....62

4- غياب الأنا في كتاباته.....75

الفصل الثّاني: غياب الأنا و حضور الآخر في رسائل ابن باديس

1- غياب الأنا في رسائله.....85

2- حضور الآخر في رسالة "شكر عام للإحساس العام".....92

أ- قراءة نفسيّة و صفيّة.....94

ب- مستويات الأسلوب في رسالة "شكر عام للإحساس العام".....96

أوّلا: المستوى التّركيبي.....96

ثانيّا: المستوى الدّلالي.....104

ثالثا: ظواهر أسلوبيّة.....107

3- الانزياح في رسالة "شكر عام للإحساس العام".....114

4- شهادات تؤكّد غيريّة ابن باديس.....117

الخاتمـــــــة.....121

ملحق الرّسائل.....124

قائمة المصادر و المراجع.....144

الفهـــــرس.....153

اتّسم التّرسّل بتعاقب فترات زمنيّة من تاريخ الجزائر الأدبي بخصائص نُسبت لفترة من الفترات أو أديب من الأدباء، إلى أن ظهرت الحركة الإصلاحيّة في الجزائر مع مطلع القرن العشرين الميلادي حيث رسمت لهذا الفن طريقا جديدا لاحت في أفقها ميزة جماليّة و إنسانيّة تبنّاها و جنح إليها الأديب عبد الحميد بن باديس في نثره ألا و هي "غياب الأنا و حضور الآخر"؛ فطبعت نتاجه التّراسلي بطابع خاص غفلت العيون عن رؤيته و رؤية سرّ جماله، وهذه المذكّرة على تواضعها حاولت الوّقوف على أهمّ مظاهر هذه الميزة في نتاج ابن باديس النّثري و بالأخص نتاجه من فنّ الرّسائل.